ربيع المسافات

(رحلة إلى القارة الأسترالية)

الكتاب : ربيع المسافات (رحلة إلى القارة الأسترالية)
المؤلف : دينا سليم
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٢
رقم الإيداع : ٨٤٥٧/ ٢٠١٢
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 -103 -1

الناشر
شمس للنشر والتوزيع
٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة
ت/فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٢)- ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٢)
www.shams-group.net

تصميم الغلاف : ياسمين عكاشة



ربيع المسافات

(رحلة إلى القارة الأسترالية)

الكاتبة والروائية

دينا سليم

- كتبتها سنة ٢٠٠٨م -

للعالمِ مجاهيله...

الخَجِلُ يخشاه ، الـمتـرَدِّدُ يمتنع،

والجَّريءُ يمتحنُ جزءًا ضئيلاً منه

تقديم

يبقى سرُّ الكاتب هو الاكتشاف، وطالما هو حيٌّ، لا يكتفي أبدًا من اكتشافه لنفسه، لوطنه والعالم، دائم الصيرورة يطمح إلى المزيد، الجديد، الغريب وغير المألوف، باحث دؤوب عن آفاق العالم البعيد، فيغوص فيه حتى النخاع، فما يراه هو لا يستطيع أن يراه الآخرون.

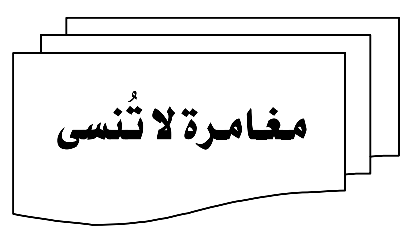
ما كان مني وعبر رحلتي الطويلة التي قمت بها عابرة ثلاث قارات، رأيتُ أن هناك أشياء كثيرة يجب أن تدَّون مما فيها من احتواء غرائبي للمكان المسكون بكل شيء يتمناه المرء... الحب، الجمال، الهدوء، التحضر، البيئة، الإنسان، العادات والتقاليد، وكل شيء غير متوقع.

تأنيتُ كثيرًا قبل البدء بتدوين المغامرة، لأني حاولت أن أوفق بين السرد المُشاهد والسرد المكتوب، وحتى لا أقع في عالمي الروائي كثيرًا حاولت أن أسقط بكتاباتي حالات بغاية التقريرية، والابتعاد بقدر الإمكان عن الوقوع في أسر السرد العاطفي.
وعلى ما أظن أن رحلتي هذه ستلفت نظر المتلقي كونها مسكونة بالغرائبية العالية والتوفيقية في وصف الحقيقة لقارة أستراليا.

وألفت النظر هو أني لم أتطرق لكل الأشياء، لكني حاولت وبقدر الإمكان أن ألمَّ بكل المعلومات والأماكن التي غامرت باكتشافها، علمًا أني لم أكتفي بمشاهدتي البصرية، واستعنت بالكثير من المصادر.

دونت أيضًا الكثير مما ذكرته كانت لأشخاص منهم من مات ومنهم ما يزال على قيد الحياة، واستشهدت ببعض ما كتبه أدباؤنا العرب المقيمون في أستراليا، وبعض ما كتبه الأدباء الأستراليون أيضًا.

دينا سليم



"في البدء كانت النار
ومن نهاية النار
تولد الصخور والماء
ومن نهاية الصخور والماء
الشرارة الوحيدة
الحقيقة المقدسة.."

جوديث رايت

شاعرة أسترالية

كان قرارًا لا رجعة فيه، بداية مخيفة، ونهاية مختلفة لمشوار حياتيّ طويل، إصرارٌ غامض دعاني لأجد نفسي في مطار أثينا على متن طائرة متجهة إلى عالم آخر، كوّنت صورة عنه في خيالي فقط ـ أستراليا ـ حيث شاءت الظروف أن أبدأ حياة جديدة هناك، أسستها بيديّ بعد رحلة العمر الصعب التي أمضيتها في الشرق الأوسط.

تنطوي المسافات عبر الريح وأنا جالسة على جناح طائرة تحمل داخلها عشرات الأنفس، خارطة للكون، وزر كهربائي صغير يرشدنا بضوئه إلى الأماكن التي تتخطاها المسافرة بهديرها غير المسموع، وبألقها المخيف.

اجتازت الطائرة عقارب الساعات واجتزت معها أعلى تصوراتي فخضت وحدي مغامرة الاكتشاف، فلا أحد يستطيع أن يطفئ حرائقه إلا بالحرائق، ففتحتُ النار على أبواب الوجود بعمق ومصداقية، جسدت في رحلتي هذه لحظات الصدق، فكانت رحلة لا تشبه رحلاتي السابقة، وتعتبر من أطول الرحلات التي قمت بها، وتأتي بعد رحلتي إلى الولايات المتحدة سابقًا.

العالم ظلام دامس، أحدِّق فيه من فوق بينما كنت سجينة نافذة مستديرة صغيرة أرى عبرها صورة وجهي الشاحب ونظراتي الخائفة.

مرَّت الساعات طويلة ونظراتي معلّقة على خارطة الإرشاد تعيِّن لي أماكن لا تزال بعيدة عن الهدف... تركيا، أرمينيا، أذربيجان، فـ داغستان، عدت بذاكرتي حيث الشاعر الداغستاني رسول حمزاتوف عندما قال :

- "يخرج المسافر فِي سفر... ماذا يحمل معه ؟...
احمل معك أغنيتك... فحملها ليس بالثقيل".

قررت من لحظتها فتح دفتر ألحاني! بحثت عن مدونتي، الدفتر الذي كان أحمره في جيبي، ولـلآن لـم أجده إلا في محطات التوقف. قال أحدهم: هذا أحمر، قلت: هذا دفتري، ردد آخر: هذا أخضر، أعبر، ضاع مني الدفتر، وما زلت أبحث عن دفتر يشبه نفسي!

كانت لي وقفة استراحة مدتها سبع ساعات في مطار (هونغ كونغ) لم أستطع الخروج منه، انتظرت، فكان انتظاري أشبه بأن يكون (انتظار غودو)، لم يأتِ أحد لملاقاتي، لم أجد وجهًا أعرفه، ولم أستطع مبارحة المكان.

أشخاص غرباء مروا من حولي، تساءلت كما تساءل (إيستراغون) (بطل بيكيت في مسرحيته الشهيرة):

- (أين نحن)؟
- (ومن هم الآخرون)؟
- (ومن كان هؤلاء)؟

وأسئلة كثيرة لا حصر لها تأخذني من حيث أتت بي الريح، إلى وطن غريب، أناسه يختلفون عنا، في بنيتهم، أحجامهم وقصر قاماتهم، لغطهم وأصواتهم العالية.

لم يكن مني سوى الصمت والانتظار، انتظار الساعة الحادية عشر ليلاً، كي تأخذني طائرة أخرى فأرحل إلى هدفي، حتمًا

سأصله بعد عشر ساعات، يعني سأكون في حضرة (بريزبن) المجهولة، تلك المدينة التي سمعت عنها الكثير، صباحًا... وانتظرت...

لكني استطعت لملمة بعض أفكاري الهائمة لأحطها على سحر وجمال تلك البلدة العائمة على بحر نقَّال (هكذا أصفها) فرؤيتها من الجو وعن قرب يدعوني إلى تحقيق أمنية كبيرة مستقبلية، الولوج إليها مهما سيكلّفني الأمر .

كان المطار أشبه بأن يكون (هونك كونج) مصغرة، عادات وتقاليد لا تشبه أي مكان.. الطعام، الملبس، الزخارف، الأجساد المتحركة على شكل روبوتات صغيره تبدو وكأنها واقفة.

العيون الصغيرة، عيونٌ حادة، كان من الصعب علي الدخول في متاهاتها، فوفرت جهدي بقرائتها. الأقدام الصغيرة بأحذيتها الصغيرة، السيقان النحيفة بتنانيرها الطفولية، الأكتاف النحيلة، الأذرع، الوجوه.... كل شيء فيهم نحيف وصغير، صغير جدًا !

قام الرجال بتدليك النساء البيض في حوانيت المساجات داخل المطار، حيث خصصت لتكون تزجية للوقت، بدءًا من الأقدام وحتى الرأس. أردت وضع قدميَّ في الماء لتدليكها وأدع لأحد الغرباء إزالة التعب منهما، لكن عدتُ بي، فنظراته الخبيثة شوّهت داخلي روح الاطمئنان، ناهيك عن حبي للاكتشاف

والتعرف، آثرت المضي في رحلتي المطوقة، لأكتشف وطنًا جديدًا بصورته المصغرة جدًا، عالم آخر مختلف بحيثياته التقليدية، مغلقًا، في أحد المطارات.

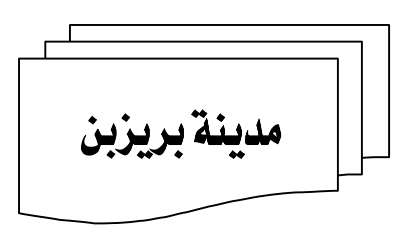
ثم استمرارا فوق مانيلا، بابوا غينيا الجديدة، المحيط الهادئ، فولاية (كوينزلاند) الأسترالية.

في اللحظات الأخيرة قبل الوصول سألت نفسي السؤال الصعب:

ـ هل هو خطأ أن أكون بعيدة عن الوطن، هل سأتوه في الغربة؟ وأسئلة أخرى كثيرة، لا حصر لها. أردت أن أرجع، حدّثت نفسي عن الرجعة، فقالت لي:
ـ لا أعلم طريق العودة!

فشكرت نفسي لاحقًا على الخطأ الجميل، إن سُمي خطأ!

يومًا ونصف من الانطلاق، وبعد غفوة خاطفة أحببتُ أن تطول، حيث كانت أذناي مغلقة أمام جدار مغلق، سمعت ضجيج العالم حولي والرُّكاب يصفقون لسلامة الوصول، لم أستطع سماع هذيانات نفسي، حيث سقطت مرة واحدة في ذهني ذاكرة المشي، بعدما استطعت رؤية سحر آخر جديد من الجو، عندما حطّت بنا الطائرة سالمين في مطار (بريزبن) الدولي، ومن هنا تبدأ الحكاية.



" إنها مغرمة بالقمر بشكل لا يحتمل
قد تكون على ما يرام فِي وطنها
إلا أن تقاليدها غريبة عن تقاليدنا.."

بيتر بورتر
شاعر أسترالي ولد في مدينة بريزبن

حملتُ حقيبتي على كتفي وخطوت بمعية المسافرين إلى قاعة الاستقبال، داهمتنا كلابٌ مدربة من كل اتجاه حطّت الرعب في قلبي الساكن، وعيناي تتوسل عدم اقترابها، كنتُ دائمة التذمر من الحيوانات البيتية، وها أنا ذا اليوم أتابع سيري بينها، بينما هي تتبختر على رسلها تتقدمنا ببطء، وبحرية!... تشمشمنا وأشياءنا، تتذوق رحيق أجسادنا ومتعلقاتنا، تجوب بأنوفها المفطسة ثنايا ملابسنا وما نحمله من حقائب، عادة مشروعة متبعة في جميع مطارات أستراليا.

وعندما التقطت أشيائي استوقفني أحدهم، استرجل كثيرًا حتى انفلق حاجبيه، داهمني بأسئلته التي رمى بها فوق رأسي، بلغة لم أسمعها منذ فترة بعيدة، وأضحيت وحدي أجيبه عن تساؤلاته الكثيرة:

ـ ماذا في الكيس؟

ـ قهوة عربية.

ـ وهذا؟

ـ جزء نبتة من حوض بيتي.

ـ وهذا؟

ـ زعتر!

ـ زعتر؟

ـ نعم زعتر!

ـ أين تضعونه؟

ـ في الرغيف الحاف.

ـ حاف!

ـ نعم، مع زيت الزيتون.

ـ لماذا جئتِ بالنبتة؟

ـ كي أغرسها في حوض عالمي الجديد.

ـ آه، آه،.... لكن أستراليا مليئة بالنباتات! وهذه؟

ـ صورة والديَّ.

ـ ستحتفظين بصورتهما، لكننا سنأخذ كل متعلقات الغذاء.

وأخيرا سألني عن رزمة مغلَّفة؟

قلت له:

- إنها بعض المؤلفات، جئت بها من الشرق.

ابتسم قائلاً:

- المؤلفات وكل النباتات في (بريزبن) حتمًا ستنال إعجابك... (ويلكم تو بريزبن)... أهلاً بكِ في بريزبن.

وفي صالة الاستقبال وقعت عيناي على لافتة كتب اسمي عليها، حملها شاب أشقر وسيم.

لم أجد (تمارا) في استقبالي، وعلل (جاك) ذلك باضطرارها السفر لتغطية أحداثًا ضرورية، بما أنها تمتهن الصحافة... شعرتُ ببعض الحرج؛ خاصةً عندما وجدته في عجلة من أمره. انهمك بالرد على عدة مكالمات وهو يشق الطريق مسرعًا إلى الضاحية، حيث تقيم (تمارا) التي تبرعت باستضافتي.

سار بنا وعيناه تسرقان من بعض وجهي، شرح لي بعض المعلومات عن البلدة التي بدت لي رائعة الجمال، فسبيلي الأول نحوها كان بمحاذاة النهر، علمت حينها أني أتمتع بمساحة خيال كبيرة، وحاسة تنبؤ مخيفة. أخرجت دفتري الأحمر ودونت عنوان فكرة جديدة أسميتها (إشارة الحظ القادم) وتذكرت مجددًا الشاعر رسول حمزاتوف:

- " نحن لا نملك إلا حياة واحدة ، ولو كان لنا أكثر من حياة لأمكنني أن أزرع حبي حتى يعم الجميع.. يكفيني أن يظل حبي حيًّا فِي كل قصائدي.. لم يعد أمامي الكثير من الوقت لأكتب عن التفاهات".

- هل تحبين المكان؟

سألني (جاك) بينما كنا نقطع جسرًا فوق النهر، لم أعرف كيف سأجيبه، وهل هو توقيت جيد أن أنهمك معه في محادثة وجميع حواسي كانت قد وضعت في المكان الساحر، البنايات التي بدت لي وكأنها مزروعة داخل المياه، استدارة النهر من تحتنا، الطرق الجانبية المتعرجة تحت الجسر، طريق المشاة الطويل والذي ذكرني بممرات روما، والفنادق الضخمة القديمة منها والحديثة، مزيج رائع لحياة عصرية.

كنتُ بين الحين والحين أبدِّل وجهتي إلى الجانبين، أدور برأسي سريعًا كي أحصل على مزيد من الرؤيا.

أحسستُ أني خارج منطق الكلام والكائنات المتحركة على جانبي بمركباتها المسرعة، تهدر على سطح الجسر العملاق، وتخرجني من صومعتي.

قاطعني مجددا، بداية مألوفة:

- الطقس اليوم حار جدًا.

- لم أشعر بهذا.

ـ هل بلادكم حارة؟

حاول (جاك) إغرائي بالكلام، بينما أحاول لملمة بعض شدوهي، وثقل أنفاسي، لا أريد تبادل الحديث الآن، فهذا قرار حياتي اتخذته منذ مدة طويلة، إنه لا كلام لحظة التأمل، أردت أن أقول له، (أسكت يا جاك)، (اصمت يا أخي)، (كف عن القول يا محترم)، (اتركني بلا كلام يا صديقي).. لكنني عدت بي، فأنا الآتية من الشرق يجب أن تكون عند حسن ظن الجميع.. أنا العصفورة التي وصلت مقصوصة الجناح، يجب أن تراعي أحاسيس الآخرين.. أنا المسكونة بالخوف، يجب أن تسمع كل الناس.. أنا المهمومة بلملمة ما تركه الماضي للحاضر يجب أن تجيب:

ـ نعم يا صديقي، بلادنا حارة في فصل الصيف فقط...

واستمر الحديث حتى وصلنا الضاحية.

نزل (جاك) مسرعًا، فتح لي باب السيارة باحترام ظاهر، فخرجت من بعده بهدوء كملكة أضاعت تاجها. أخذ الحقائب وسبقني بخطواته الطويلة الثابتة إلى المسكن، وأنا أتبعه بخنوع.

أردت التعرف على الحي والناس والشارع والرصيف، لم يكن هناك سوى خطواتي البطيئة وأنا أهرول خلفه مثل طفلة قنوعة.

أدار المفتاح بمهارة؛ وكأنه صاحب الدار، فتح باب الشقة المكونة من غرفة واحدة ومطبخ لا غير، وضع الحقائب في

زاويـة خاصـة أعـدت لهـذا الغـرض، فـتح النـافـذة، اسـتدار فـي الغرفة يتفقد الأشياء، سلمني المفتاح، رحَّب بـي، اعتـذر كثيـرًا، لم يخبرنـي عن موعد رجوع (تمارا)، حذرنـي مـن أسـعار السـفر في التاكسيات، ابتسمَ فاحمر وجهه خجلاً.. وغادر مرحبًا...

- (ويلكم تو بريزبن...)

كـان الوقـت ظهـرًا، تـرددت، احتـرت، انتـابني شـعورًا مختلفًـا، بعض الخوف مشوب بالقلق. استيقظت لحظتها على حقيقـة أنـي فـي قـارة مـا علـى الطرف الآخـر مـن الكـرة الأرضـية، مـساحتـها ٧,٧٤١٢٢٠ كم مربع، هي أكبر جزيرة في العالم، عائمة وسط المحيطات، وأنا وحيدة في مكـان مجهـول، رأيتـه علـى الخارطـة فقط، مكان ما في بلاد الله الواسعة.



أولى ساعاتي

جهلت وجهة خطواتي... أولى خطوات الحرية. خطوت بضعة أمتار من البيت لأجد نفسي بعدها في الشارع، كان واسعًا جدًا، البيوت المحاذية مسكونة ببشر لم تقع عيني عليهم طيلة أيام مكوثي. دوَّنت اسمه (فلورا ستريت ـ شارع الوردة)، من ثم (بيكون ستريت ـ شارع المشعل)، ورقم البيت والشقة كي أستطيع العودة، تدرجت بهدوء وأنا أتفحص المكان، خرجت إلى الطريق العام (غلادستون رود ـ الحجر المسرور)، ثم درست مسالك الضاحية (هاي جيت هيل ـ بوابة التلة المرتفعة) بأسمائها التي تداولت أمامي بغزارة، طويلة أسماؤها جميلة، كان بامكاني نظم قصيدة منها.

امتلأت رئتاي بهواء عليل رغم سخونة الجو، متعة كبيرة التجوال في ضاحية خالية من السكان، ومكتظة بالبيوت والحوانيت، سألت نفسي: (أين أنتم يا سكان بريزبن، وكل هذه البيوت لمن تعود؟) خسارة أكبر ألا ترى ناسها اللطفاء إلا في أماكن محددة.

كان الأمر شبيهًا لموقف مررت به وأنا في (باريس)، كان الجو باردًا وخليت الشوارع من ناسها تمامًا، وعندما وصلت (برشلونة) مساء بعد أسبوع تقريبًا، وجدتها مزدحمة جدًا، تهت بينهم، بل أحسستُ بالضياع، قلت: (الظاهر أن جميع سكان باريس جاءوا كي يتناولوا العشاء على موائد برشلونة)!

تقع بريزبن على الشاطئ الشرقي للقارة الأسترالية على المحيط الهادئ، وهي ثالث أكبر مدينة أسترالية، أُسست عام ١٨٢٤بداية كمستعمرة بريطانية، وفي سنة ١٨٣٩ حيث انتهى عصر العقاب ليعلن عنها منطقة حرة مفتوحة أمام المهاجرين العاديين، وفي سنة ١٨٥١ فصلت عن (نيو ساوث ويلز) حيث باركت الملكة (فكتوريا) ملكة بريطانيا هذا الحدث، فأصبحت ولاية قائمة بحد ذاتها. (كوينزلاند - أرض الملكات) قائمة على نهر (بريزبن) طوله ٤٠كم.

ويقدر عدد السّكان المقيمين في ولاية كوينزلاند، "حسب إحصائية مارس ٢٠١١ بـ ٤,٥٦١,٧١١ نسمة (صدر عن منشورات الإحصاءات الديمغرافية الأسترالية ABS. ويمكن الإطلاع على مزيد من المعلومات الإحصائية الديموغرافية على موقع المعلومات OESR)

ومن المتوقع أن يتضاعف عدد سكانها في سنة ٢٠٥١.

لقبها البعض بمدينة (بريز فيجاس) المقصود (لاس فيجاس) بسبب نمط الحياة البطيء، أسلوب المواطنين الهادئ، وحياة الاسترخاء الذي يعيشه المواطنون، ولاحتوائها على كازينو مشهور، (تراجير آيلاند - جزيرة الكنز) والذي يعتبر مكانًا ترفيهيًا أكثر منه مكانًا للقمار والخسارة.
ويعتبرها مواطنو أستراليا بلد النقاهة لقضاء فيها فترة ما قبل الرحيل (حسب قولهم) يسكنها الكثير من المتقاعدين والمسنين، الأثرياء والمرتاحين.

بحثت عن النهر، فبواسطته حتمًا سأتعرف على اتجاهاتي، وهكذا أيضًا كان الحال عندما زرت (باريس) سابقًا، من خلال نهرها (السين) استطعت تعيين بقعة وجودي، ومن ثم التخطيط للآتي.

كانت همومي أكبر من الأفق البعيد أمامي، أفق واسع لا حدود له ممتد على طول النظر دون نهاية. وقلقي يساوي بُعد السماء التي بدت قريبة جدًا.

مشيتُ شوارعَ وطرقات متشابهة، سبعون رصيفًا، لم تسقط من ذاكرتي الطرقات، لكني اخترت طريقًا واحدًا جميلاً. أحسست بضياع أكيد وأنا أعدو دون غلال فتنمو داخلي عشرات الهواجس، وقفت لبرهة في منتصفه وكأني تعودت الوقوف في محطات لا تأخذني.

اقتحمت الطريق الغريب كجندي فقد سلاحه، كانت خطواتي ثقيلة ومترددة، تدرجت طريقًا طويلاً لا يشبه أي طريق أعرفه، كنت متلبسة بذاكرة الخرافة، لم أستطع الوصول إلى وجه واحد يشبه وجوه مُدُني... ما تزال ذاكرتي مقيدة !.

انزلقت أطرافي في كوَّة بعيدة لا تشبه أي قعر، مستخدمة كل وعيي من أجل توظيفه وفتح جميع الحواجز المغلقة أمامي، لم تكن هناك شوارع مكتظة ولا رائحة عفونة، ولا بشرٌ يمتطون جنح الظلام من أجل سداد فاتورة ميلادهم، ولا متسولون، ولا عبيدٌ، ولا أطفالٌ يرتزقون من بعض الفضلات. علمت جيدًا أني طرقتُ أبوابًا مفتوحة، مساحة واسعة من جمال لا يتكرر، فساويت بين الواقع المأمول الذي أرتجيه، والعالم الحقيقي الذي حطَّ بشموخه أمامي.

ترجلت من أعلى المرتفع، كان أشبه بقمة جبل مأهولة بالسكان، والمدينة الكبيرة صامدة أمامي ببناياتها الزجاجية التي لمعت من خلالها الشمس الحارقة. تمنيت لو اعتمرت قبعة تقيني من لهيبها، لكن سرعان أن وضعتُ خطوي تحت أشجار نسقت بترتيب بمحاذاة الرصيف الذي بدأ ينحدر انحدارًا شديدًا إلى أسفل.

تدرجتُ بين الأشجار التي منحتني بعض الظل، فأحسستُ ببعض نسيمها. ثم ارتفاع آخر عملاق أخذ من عزيمتي الكثير، ثم

انحدار آخر فتغيب عني البنايات والتي أخذت بالاختفاء رويدًا رويدا.

لم أستطع أن أسلك طرقًا عرجاء لئلا توقعني في عصر تخلَّفت عنه الأزمنة وخلت منه السبل! فقررت المضي نحو الأمام في طريق مستقيم مهما كانت نهايته.

أصبح هدف الطريق واضحًا لي، ورؤيتي تتحقق عندما لمحت النهر العالق بين ضفتين، أسرعت إليه باسمة وكأني بذلك أسعى لإرواء ظمأي بعد عطشٍ طويل.



نهر بريزبن

" كان له فِي الدارِ خلان
خلٌّ باع حزن الدار للجاني
وخلٌّ جُنَّ من طول المسافات "

غيلان
شاعر عراقي مقيم في أستراليا

أُخذتُ بجمال نهر بريزبن، وكأني أرى (النيل) المصري مجددًا، أو ربما كان (السين) الفرنسي، هو انتماء للذاكرة الملعونة! استذكرت حينها رحلاتي المتعددة إلى القاهرة ومصر العليا، لكن بياقة جديدة وحُلَّة لم أرها من قبل.
نهرٌ قائم في الجنوب الشرقي لولاية كوينزلاند، مبتدءًا من منطقة (تووومبا)، ومنتهيًا في منطقة (بايرون بي).

استغرقتني الرحلة من بيت تمارا وحتى وصولي النهر نصف ساعة، لم أشعر بالزمن وأنا أمتطي جدول الأرصفة العالقة بين

الأشجار الضخمة، وزفير أنفاسي كانت توازي سقوط أنفاس الأطفال حولي وهم يركضون خلف كرة القدم، يحاولون وبقدر الإمكان إدخال بعض الأهداف.
امتلأ الرصيف بالناس، الأطفال في عرباتهم تجرهم أمهاتهم، والمسنون يتنزهون اثنين اثنين، المعوقون على مقاعدهم الخاصة بهم، وأنا وحدي أجوب الوجوه في وضح النهار.

صممت مدينة بريزبن بعناية حول النهر الذي بدا كأفعى تتلوّى حول الأماكن العامرة التي بنيت حوله مارًا بكمٍ هائل من المناطق السكنية المأهولة، نهرٌ مفعم بالخير يأتي بالأرزاق من كل صوب.

شعوري بالإرهاق لم يثنني عن المتابعة، حاولت إيجاد مكتب استعلامات قريب يقوم بإرشادي وتزويدي ببعض الخرائط الهامة، فالسير وحيدة في مدينة بعيدة أجنبية غريبة يدعني أشعر ببعض القلق.

وقفتُ أمام ضفة النهر، وسط حديقة جميله مشجرة وأنا أتابع الأوتوبيس النهري الذي اخترق المياه بخفة محملاً بالركاب والسيّاح.

جلست على أحد المقاعد، راقبت المكان بتحركات الكائنات، رجالاً ونساءً، قططًا وكلابًا، أطفالاً ودراجاتٍ هوائية.

ألاحظ تموجات مياه النهر بعد اختراق الزوارق، ثم الجسور المنتصبة بضخامتها، تحاذيها من الطرف الآخر البنايات الزجاجية التي شاهدت بعضها وأنا أترجل.

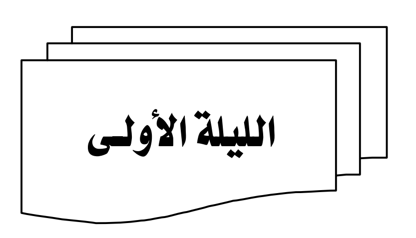
ظهرتْ فجأة بعض النوارس لتأخذ مكانها قربي وعلى كتفي، شعرت بالعجز أمامها، طلبت بعض الفتات الذي تركه عمدًا من كانوا قبلي. قفز قلبي من بين أضلعي، وحميت وجهي من مناقيرها المسالمة، حدَّقتْ بي مستغربة تصرفاتي، وظلّت تحيطني وكأنها ترسل لي رسالة هامة.

أدركتُ بعد طول تأمل أن من يستفيق من حلم مزعج، ويجد نفسه في حلم آخر سعيد حتمًا ستتحقق أهدافه ولا داعي له أن ينام كي يحلم، أو لم يعد الحلم مصدر إزعاج ما دام كل هذا الكمّ من الطيور يحوم حولي.. منظر ذكرني بمقولة الكاتب عبد الرحمن منيف:

- "من لا يعرف الطير يشويه".

فقلتُ لنفسي:

- اهدأي واشعري بالأمان بما أن طيور هذه البلد تشعر بالأمان. وكنتُ أشعرُ لحظتها أني طائر حرٌّ أترنح إرهاقًا بعد طريق طويل أمضيته وأنا معلّقة بين السماء والأرض.



الليلة الأولى

لم أدرِ كيف استطعت النوم في أوّلِ ليلة أمضيتها في بلدٍ جديد، بين أربعة جدران وغرفة تكاد تكفي حمل تذاكر ترحالي. عادتني الأفكار متلبسة فقرصتني كالبعوض الذي هجم عليَّ بدون سابق إنذار، حتى النعاس والإرهاق لم يستطع من لسعاته المستمرة، وأزيز الحشرات التي بدأت (تهسهس) معلنة مصاعب شهر الصيف، ولأول مرّة أعرف أن لـ(أبي بريص) صوتًا خاصًا، بينما كانت تحوم بأزواجها سقف الغرفة والجدران.

وجدتُ نفسي داخل غرفة صغيرة؛ وحيدة، في ليل معتم اختفى منه القمر. دندنت أوتار الزمن حتى الجدران، لو انقطعت تُبقي صدى وجودي في ممر طويل خارج الغرفة، خشبيّ معلق على عشرة سلالم. المروحة لا تبعث الهواء، مرناة تبث أخبارًا ميتة، سرير يصرخ من كثرة الفراغ، ونافذة تطل على ثمة حياة. بقايا قماش أبيض معلّق يتدلى من الجدار حتى أعماقي الهائجة، شعور مختلط، لا أعرف كنهه، أهو الخوف، الفرح، الخلاص، الاشتياق، الدهشة، الغربة، الوحدة، الجمال، الحرية، أم ماذا؟

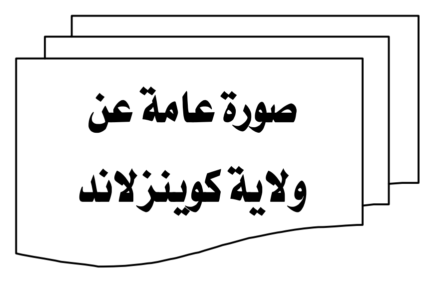
فتحت باب الخزانة كي أتلقف ثوبًا خفيفًا يتحمل ململتي، رأيت وجهي في المرآة الملتصقة ببابها من الداخل، أمعنت النظر فيه (أي وجهي)، كثيرًا، وتساءلت:
ـ أهذه هي أنا؟

لم تجبني المرآة. وقفتُ بسذاجة أمامها، بحثتُ في عيني عن عيني، لم يتألق وجهي سحرًا، بل كانت هناك نُدبًا، وربما بعض غبار الطريق... أسميتها نُدب الزمان.

لم يهمني ما كان وماذا سيكون، أغلقت الخزانة، ثم أغلقت التلفاز، أطفأت النور، وتسحبت خطوة واحدة حتى السرير.

أدخلتُ جسدي المنهك في (ملحفة)، غطاء اللحاف، بقي رأسي مشدوهًا بأمر معالجة الحشرات التي تكاثرت حولي وهي تحاول امتصاص بعض وجعي، غطيت وجهي بمنشفة، أخمدت تفكيري ونمت نومًا عميقًا.

لم أستفق إلا صباحًا على صوت طائر غريب وقف على حافة النافذة، صبَّ ألحانه الجميلة في عقلي، مغتصبَا مكان ديك حارتنا وصياحه.



" رائحةٌ كريهةٌ تفوح مني
حين ألوك المرهوانة
مرتديًا سترتي
مدحرجًا جسمي على العشب الأخضر
قريبًا من حظيرة الرياح
أكاد أجنُّ من سحر القمر "

آلان جيفريز
شاعر أسترالي

يهيمن الساحل على ولاية كوينزلاند، لذلك ليس من الغريب أن تتركز معظم المستوطنات ومناطق الجذب السياحي في هذا الشريط الساحلي الضيق الذي يتميز بالعديد من المعالم الطبيعية الرائعة مثل الحاجز المرجاني العظيم، طوله أكثر من ٢٣٠٠كم، ويتكون أكثر من ٢٩٠٠ صخرة، فيه ٥٠٠٠ نوع من الرخويات،

١٥٠٠ نـوع أسماك، ٨٠٠ نـوع من قناديل البحر، ٥٠٠ نـوع من أعشاب البحر إضافة إلى الحيتان.
إضـافة إلــى الغابـات الممطـرة المورقـة. كمـا يوجـد بالمنطقـة الداخليـة شريط "جريت دافيدنج رانـج" الجبلـي ومجموعـة مـن المرتفعـات الواسـعة، إلـى جانـب العديـد مـن منـاطق الأراضـي الزراعية الخصبة المستوية التي تمتد باتجاه الغرب.

تـأتي بعد ذلـك المنطقـة النائيـة القاحلـة والتـي تنتهـي عنـد بدايـة الإقليم الـشمالي. كمـا يوجـد فـي منطقـة "جلـف كـانتري" وشـبه جزيـرة "كيـب يـورك" الواقعـة فـي أقـصى الـشمال العديـد مـن المنـاطق الواسـعة غيـر المأهولـة التـي تنتـشر فيهـا أعداد كبيـرة جدًا من مجاري الأنـهار الجافة التي يمكن أن تفيض بالميـاه فـي المواسم الممطرة.

التعداد السكاني لمدينة "بريـزبن" ٢,٠٤٣,١٨٥ نـسمة. حـسب إحصائية سنة ٢٠١١.

اكتـشفت (كوينزلانـد) فـي بدايـة القـرن الـسابع عـشر، علـى يـد باحثين هولنديين، وصلا إلى شمال (كوينزلاند) إلى منطقة تدعى اليوم (كيب يورك بينينسولا).
ثم وصلها الكابتن (كوك) سنة ١٧٧٠.
سميت بهذا الاسم نسبة (لتوماس بريزبن) وهو جندي بريطاني وعالم في الفلك.

في سنة ١٨٢٤ أقيمت أول مستوطنة عقاب في منطقة (ريد كليف)، وبعد سنة انتقلت المستوطنة إلى مدينة (بريزبن) اليوم.

وتحتفظ منطقة (ريد كليف ـ صخرة الشاطئ الحمراء) بالمعالم القديمة، وهي منطقة ساحلية جميلة جدًا.



استخلصت أن الذي يريد الإقامة في أستراليا عليه إقامة علاقة ودية بينه والبيئة، ترويض نفسه مع الطقس والطبيعة المغايرة التي ما إن نزلتُ ولأول مرّة على أرضها؛ أحسستُ باختلاف مناخها عن باقي القارات التي زرتها سابقًا.

روّضت نفسي للظروف والمكان، وقلبي المتعب حمَّلته الورق الأبيض، خطَّ الجديد كي يستعيد بياضه. لم تنم أناملي وهي تخط كل شيء تراه ولم تألفه.

بدا سلوك الشمس غريبًا، بدأتْ النهار بلهيبها، وأنهته خلف السحب الغليظة، تحاول مرارًا اختراقها كي تعلن سرورها على أرض مبللة سرعان أن تجفّ، وعندما تجن؛ تتسبّب بحدوث عاصفة هوجاء مفاجئة.

تأخذك الريح معها حيث لا تدري، تستمر بضعة دقائق وتختفي، وفي آخر النهار تعود ساخرة باهتة ومجددًا بين السحب المتراكمة، تضحك كثيرًا ثم تبكي قبل أن تؤول مودعة من جهة الشرق.

وفي اليوم التالي، تكدّست السحب مرة أخرى في التخوم مع سرعة الريح، حتى أغلقت وجه السماء في لحظة، التي كانت مكشوفة وواضحة، زمجرت، هبّت، وحطّت فوق رأسي مباشرة أخذت معها قبعتي، فخيّل لي أن الغيوم تتقصدني، لو رفعت ذراعي لها لأمكنني ملامستها، والبرق المتتابع بدأ ينذر باقتراب عاصفة قوية قادمة، روَّعني صوت الرعد المجلجل، أخرجني من عمق الذاكرة، بدا لي وكأنه صوت الرصاص المتتابع في الوطن.

كان مساري بين الأشجار خطرًا، فبمقدور الصاعقة صعقي من حيث لا أدري.. أسرعتُ في خطوي وأنا أعتلي الطريق إلى قمته، اضطربتْ الغيوم مجددًا، فأتت بالمزيد، ولم أدرِ كيف ومن أين، تكدَّرت الأجواء، انزعجت الطيور، فرَّت هاربة إلى مخادعها، وانهمرت الأمطار فجأة، غزيرة مجاهدة، تدفقت وتوالدت الحبات الزخمة التي حطَّت على رأسي بأحجامها الهائلة... مطر هذا أم حجارة؟... سألت نفسي.

لم أستطع مسح عرقي المتصبب، كان الجو حارا، الرطوبة عالية والمطر الغزير حوّل الطريق في ثوان إلى نهر متدفق من المياه التي بحثت لها عن مصب تتسارع إليه.

أظلمت الدنيا وبدا لي أن فيضانًا كبيرًا سيأتي، أو ربما قامت القيامة على هذه القارة، التي تبلغ مساحتها سبعة ملايين ونصف كم مربع.

مساحة الأزمة أكبر من تفكيري واستيعابي للحاصل، ولم أدرِ تحديدًا بأي مركز قوّة موجودة أنا منها ومن هذه العواصف المرعبة المخيفة.

يختلف الطقس في ولاية كوينزلاند الشمالية عن أي طقس آخر، إذ لا يتعلق الأمر بقدوم فصل الصيف أو الشتاء، بل تتنوع المواسم ما بين الأجواء الساخنة والرطبة أو الباردة والجافة. وترتفع نسبة الرطوبة في الفترة ما بين شهري نوفمبر وديسمبر، وشهري أبريل ومايو، وتصبح درجة الحرارة أكثر ارتفاعاً لفترة تمتد إلى نصف العام.
بينما تعتبر الفترة من يناير إلى مارس هي الأكثر ارتفاعاً في نسبة الأمطار، وعلى وجه الخصوص في المناطق الساحلية الشمالية.

كما يشهد هذا الموسم أيضًا حدوث الأعاصير. ولا تشهد ولاية كوينزلاند عادة أي طقس بارد، ولكن قد تنخفض درجة الحرارة في المناطق الداخلية أو المرتفعة في المساء في الفترة ما بين شهري مايو وسبتمبر. ونادراً ما تنخفض درجات الحرارة في بريزبن، جنوب الولاية، عن ٢٠ درجة مئوية، ويصير المناخ لطيفاً جداً في فصل الشتاء (في الفترة من يونيو حتى أغسطس) يخلو من الرطوبة الخانقة التي تلاقينا كلما اتجهنا شمالاً.

ما كان مني سوى الاستسلام للمطر، تبللت ملابسي تمامًا، خلعت حذائي الصيفي ومشيت حافية بين المياه الساخنة والمطر المنهمر، خضت معركة المشي ضد التيار، والمضي قدمًا بعكس اتجاه الريح، حاولت قدر الإمكان الابتعاد عن أسلاك الكهرباء، وأغصان الأشجار السامقة التي بدت مثلي وكأنها هي أيضًا تقاتل من أجل الصراع على البقاء.

الإقامة في أستراليا يلزمها التحديات، فالحياة فيها مغايرة، بداية، تبديد الإحساس بالغربة، ثم تغيير المفاهيم التقليدية التي تعودنا عليها، الاستغناء عن بعض الضوابط، والقبول بالمسلمات دون مُساءلة.

قررت التخلي عن بعض خجلي فأكون فعالة بجميع ألوان الحياة الجديدة دون تردد رافضة التنقيب عن العيوب، الانطلاق وكسر الحواجز المعيقة. بدأتها بالتخفيف من الملابس، إلغاء الكعب العالي، التخلص من الخجل عند سقوط المطر المفاجئ الذي سيؤدي حتمًا إلى السير حافية أحيانًا وبملابس مبللة كليًا، أعتبره شوطًا هامًا لا مفر منه، هو أن تتبارى قدماي الحافيتان الغوص في مياه المطر على أرض ساخنة، رؤية ولمس البخار المتصاعد.

أمـر التكيّـف لأحـوال المنـاخ والطقـس يـؤدي بـي حتمًـا إلـى الاستقرار، فكانت مهمتي مضاعفة، اكتشاف الوجه الآخر البعيد والتعرف على المعالم الجغرافية.

البحث والتنقيب أمران لا بدَّ منهما، يساعدانني على ممارسة العالم الجديد بكل متغيراته وتحولاته، وبالتالي تحولاتي على الصعيد النفسي والشخصي من أجل المحافظة على سلامتي وطول بقائي...

كل هذا، أو هدم كل المنعطفات والعودة من حيث أتيت.

الظروف الاجتماعية

" ظلت عشرين عامًا تهرع إلى حضنه كلما داهمها صوتٌ راعب، وظل في كل مرة يهدئ ارتجاف قلبها وقلق عينيها.
ابتأس يوم كفت عن عادتها الجميلة تلك، وتساءل: ترى هل صار لها حضن أدفأ.. أم أن حنو حضنه زاد عن حده وأمسى قيدًا "

د . نجمة خليل حبيب
كاتبة فلسطينية مقيمة في أستراليا

أثناء تجوالي اليوميَّ استطعت التعرف على منافذ المدينة القريبة من البيت، والسبل الهادئة التي كانت تفوح من بيوتها شتى أنواع الأطعمة، روائح غير متشابهة، متناقضة وكثيرة، منها التي من خلالها استطعت معرفة أصحاب الدار الساكنين فيها، لبنانيون، مصريون، وربما سوريون، تذكرت الطعام التي أعدته والدتي، تمنيت التدفوء بمعطف صوتها وكلماتها الشجية، الآن أكثر من أية مرّة أشعر أني بأشدّ الحاجة لها... افتقدتها.

وعندما كانت الروائح تصل حتى صداع رأسي؛ أدرك حينها أن الساكنين هنودًا أو تايلنديين.
وعرفت فيما بعد، أن أستراليا تحتوي مجتمعًا شاملاً، ولكلٍّ خصوصياته وعاداته، لغته وأطعمته.

تحترم أستراليا الجاليات القادمة من سائر بقاع العالم، المنحدرة من أكثر من مائتي دولة، فهناك الجاليات الإيطالية، اليونانية، الفرنسية، اللبنانية، الماليزية، الإيرانية، الإندونيسية، سكان جزر فيجي، الأسبانية، التايلندية، السنغافورية، الصينية، اليابانية، الألمانية، الروسية، المصرية، الأردنية، المجرية، الهندية، الألبانية، الكورية، القارة الأفريقية، الأرجنتينية، الفلسطينية، وغيرها... تهتم بدمجهم في المجتمع الأسترالي واستيعابهم في جميع الميادين. وتناهض التمييز العنصري سواء الديني، أو الثقافي، أو الجنسي.

ربع السكان في أستراليا لم يولدوا فيها، وحوالي ١٧% من السكان لا يتحدثون اللغة الإنجليزية، وهي لغة الدولة الرسمية. لكن تساهم الحكومة الأسترالية بتسهيل أمور تعلم اللغة لسائر القادمين الجدد وتأهيلهم.

يمكن لكل جالية الاحتفاظ بثقافتها، تراثها ودينها دون قيود أو شروط، وتقوم الحكومة برعاية المشاريع ماديًا ومعنويًا، فتقام سنويًا مهرجانات واحتفالات تُقدّم من خلالها العروض المختلفة

التي غالبًا يكون هدفها المحافظة على التقاليد وعادات وطن الأم. فهناك مهرجانات سنوية للتنوع الثقافي، التقاء الحضارات، مهرجان التراث الإيطالي، اليوناني، السوداني، الاحتفال بميلاد (بوذا)، مهرجان سنوي تقليدي للسكان الأصليين (الأؤبرجينيز)، الرقص الفلكلوري للجالية الأسكتلندية، الجالية الإيرلندية، الاحتفال بيوم النهر، (أستراليان داي) يوم الوطنيين وهو استذكار ١٤,٠٠٠ مهاجر شرعي دخلوا البلاد، (أنزاك داي) عيد الاستقلال، ومسابقات التوزيع الموسيقي والغناء الغربي، الرقص لدول أمريكا الجنوبية وغيرها.

يمكن ملاحظة تنوع المطاعم والحوانيت، فهناك المطاعم الشرقية، الآسيوية، الصينية، الهندية، اللبنانية، التايلاندية، الأكلات السريعة، الإيطالية، اليونانية والفرنسية بجميع الأصناف والمذاقات، والبارات المنتشرة أكثرها ايرلندية.

تعتبر أستراليا من الدول المسالمة، لم تشهد حروبًا ولا اضطرابات، آمنه وتتبع نظامًا جميلاً وقوانينًا صارمة ضد الاتجار بالمخدرات والسلاح، فنسبة الإجرام فيها قليل.

خالية من الأمراض المعدية والمستعصية، فكل لاجئ يلتجئ إليها يحتم عليه المرور بفحوص طبية ضرورية قبل دخوله، ناهيك عن النظافة الظاهرة والتعقيم، محاربة التلوث. فالشعور بالأمان أولى مقومات الحياة وأول خطوة نحو الانتماء الحقيقي للمكان.

انتعلت حذاءً رياضيًا، أبدأ معه كل صباح فيستمر معي حتى المساء، فكان أوّل بداياتي نحو التأقلم، لا للمظاهر ولا للتجمل، لا للرسميات ولا للقيود، وداعًا أيها الكسل! فرياضة المشي كنت قد بدأتها منذ وصولي ولن أستغنى عنها بعد الآن، إلى حتى يحين الوقت وأستطيع اقتناء سيارة أستطيع من خلالها لفّ هذه القارة رأسًا على عقب من أجل اكتشافها.

كان ضروريًا مزاولة إحدى الرياضات كي أستطيع تحدّي قوّة الطبيعة ومغامرة العيش هنا، فوثقت بقوة إرادتي وبدأت إلى نمط حياة جديد أكثر مرونة، وكما قال (نيتشه):

- "لا تمشي في طريق الحياة إلا ومعك سوط عزيمتك وإرادتك لتلهب بها كل عقبة تعترض طريقك".

غصتُ في أعماق المدينة التي لا تُمَلّ، بحثت عن أماكن تشبه بلادي وأماكن أخرى زرتها سابقًا، وأخرى آلفها، ولا آلفها، وكنت حريصة جدًا على عدم تأخري بالعودة، وعند رجوعي أغلق النافذة، أتأكد من بابي مغلق... تصرف يبدو لي الآن كان مبالغًا فيه.

تابعت بعض البرامج الترفيهية على التلفاز، كيفية تحضير الأطعمة، كيفية الاعتناء بالحديقة، البرامج الرياضيه، صيانة وتصليح البيت، الأخبار الخفيفة العادية وغير العادية منها والمكررة.

خبر على التلفاز عن محاولة انتشال قطة علقت في مجرى للمياه، كيفية التعامل مع الأزمة، ومحاولة التخطيط لإنقاذها دون تسبب الإضرار لها، العناية بها وتعويضها عما أصابها من ألم، انجذبتُ للمنشفة ناصعة البياض والتي نشفَّ أحد رجال الإطفاء بها القطة المدللة بعد أن استطاع إخراجها من الحفرة اللعينة... تمنيتُ لو كنت قطة في بلادي!

انتظرتُ أخبارًا عن بلادي، لم تتطرق وسائل الإعلام الأسترالية لشؤوننا في الشرق الأوسط بشكلٍ كافٍ، وكأنها تحجب الأخبار السيئة عن مواطنيها المدللين،(هكذا أسميهم)، أو ربما بسبب انشغالهم حينها بالتقاط حيوان (الكوالا) عن الأشجار في غابات تحترق، ومحاولة إيجاد مأوى للعشرات منها.
تسمرت أمام المشهد والمتبرعون يتسلقون الأشجار من بين النيران، معرضين أنفسهم للمخاطر الحقيقية، من أجل تخليص عدد كبير من هذا الحيوان الذي ينتمي إلى بيئة خاصة به، وبالتالي عرضه على المتبرعين من أجل إيوائه.

اليوم الثاني لوصولي

كـان تواصـلي مـع العـالم، صـبيحة اليـوم التـالي مـع موسـيقى صاخبة انبعثت من البيت المحاذي. ضحكات ودردشـات، صـخب وصراخ، قهقهات وضجة.

كانت إجابة على تساؤلي قبل بضع سـاعات: (أين هم سـاكنوك يا بريزبن؟). الجواب هو: نحن هنا، خلف جدار غرفتك مباشرة، سكارى، فمسموح لنا الشرب. والإجازة الأسبوعية مقر لإطلاق صمتنا والتحرر من التزامنا المستمر خلال الأسبوع.

العمل في أستراليا خمسة أيام، وسـاعات العمـل للمـوظفين، تبـدأ عمومًـا مـن الثامنـة والنـصف صـباحًا، وحتـى الرابعـة والنـصف عصرًا. أما يوما السبت والأحد فهمـا عطلـة مـن كـل شـيء يمـت للعمل بصلة، راحة ذهنية ضرورية وجسمية لا بدَّ منـها.

أمـا يوم الجمعـة مساء، فيكون يـوم التحـرر مـن التعـب والعنـاء، عادة يكون يوم لقاء الأحبة، شرب الخمر في أرقى المقاهى التي تبقى مفتوحـة حتى صباح اليوم التـالي ، يـوم طويـل يبـدأ صـباحًا

في العمل، وينتهي بالمحتفلين بالعطلة الأسبوعية فجر يوم السبت.

الحقيقة تقال وهي أني لم أستطع التعاطي مع كل هذا الانفلات الصباحي الذي أقلق أحلامي، حاولت العودة إلى النوم، غاضة النظر، لكني لم أستطع، بقيت في السرير وتابعت عن خبث أحاديث الجيران وتفوهاتهم.

كان الحديث جماعيًا، شبابًا وشابات، عن طالب التحق بفريق محلي لكرة القدم، واستمر الحديث ساعة كاملة، سرد القصة بحد ذاتها دعاني للتعرف عما يفكر به الشباب الأسترالي، كان خاليًا من عنصر واحد يتحدث عنه الشباب عندنا.
إذن اهتمامات الشباب هنا لا تصلح لأن تكون يومًا أبيضًا واحدًا في حياة شاب في وطني.

لا علاقة لي بما يقال، فلم أكن جاسوسة أو (مُلسّنة) بل هي أصواتهم التي كانت عالية، عالية جدًا، وضحكاتهم جميلة، ومرحهم وسرورهم دليل قاطع، بل انعكاس هام على حياتهم الغنية بالسعادة.

ومن الجدير ذكره أنه ممنوع شرب الخمر في الحارات والشوارع، فلهم حريتهم الكاملة في شرب الخمر في بيوتهم والبارات الكثيرة المتعددة. لكن لكل هذه الحرية بعض الالتزام،

عدم قيادة السيارات أثناء الشرب، وصدر قانون جديد أيضًا بعدم تعاطي المخدرات وقت القيادة.

ممنوع التدخين في المحال العمومية، وممنوع ممارسة السلوك الإباحي في الأماكن العامة، ويجب الالتزام بأحكام القانون الأخلاقي.

حرية الفرد موجودة بكل مكوناتها، لكن بالتزام مفروض، فسلطة الشرطة هنا لا تقل أهمية عن سلطة الحكومة والتشريع.

ومن المألوف أيضًا يومي السبت والأحد، التجوال والتنزه، الاعتناء بالحدائق وقص الأعشاب، في أية ساعة ممكنة، لكن في الأيام العادية يحذر استعمال أدوات القص وكل أنواع الصخب بعد الساعة التاسعة ليلاً؛ لعدم الإزعاج.



"أيًّا كان عظم مأساتك...

تيقن بأن عجلة الفولاذ، أي اسمها العالم...

لن تتوقف من أجلك لحظة واحدة"

دنيس

شاعر أسترالي صعلوك

قررت أولاً اكتشاف المعالم القريبة من البيت، فكان تخطيطي صائبًا عندما اخترت مسيرتي قرب ضفة النهر على ممشى خاص أُعدَّ للمشاة، في منطقة تدعى (ساوث بانك ـ الضفة الجنوبية) حيث الحدائق الغناء والزهور الجميلة، أنواع شتى من المقاهي، المدرجات، الملاعب والمسابح، يحاذيها ممشى خاص أيضًا أُعدَّ لراكبي الدراجات.

وضعت حقيبتي على ظهري، فيها ساندويتشًا من الجبن الأسترالي اللذيذ، وزجاجة ماء.

هلعت برؤيتي بعض الزواحف التي كانت تمرّ بحرية أمام المشاة، تأخذ لها مكانًا على الصخور الناتئة تحاول امتصاص بعض حرارة الشمس، أشهرها الحرباء النهرية، ضخمة، بنية اللون، مرقطة بألوان تبدو جميله، تكثر في الأماكن الرطبة وتظهر علانية في الجو الحار.

أحاطتني الطيور بأشكالها وأنواعها الغريبة الكثيرة، طيور لم أعهدها من قبل، فكان الموكب أشبه بأن تكون مواكب أعراس، عذَّبني سؤالٌ لم أفقه له جوابا: هل زقزقة الطيور هذه علامات انسجام محبة ووفاق، أم احتجاج ومُطاردة ؟.. كيف لي أن أدري!

واصلتُ المسير قدمًا وأنا غارقة بين تدوين الرؤيا المنحدرة من غرائبية المكان وجماله والاستمتاع بمياه النهر الصافية. التوَت خطواتي مع التلواء النهر، وأنا أخطو بمحاذاته في سبيل خشبي تارة وترابي تارة أخرى، فوجدت نفسي أمام متسلقي المنحدرات على الضفة، توقفت حاضرة بزنودي، راقبت الحدث والمتسلقين يتسابقون إلى القمة، غابوا بين الحبال المشدودة حتى أبعد مدى وهم يصعدون ببطء حذر إلى أعلى.

مرَّت عدّة زوارق سريعًا واختفت عن ناظري تاركة لي إشارات التقدم، وبخطواتي النشيطة حاولت تجنُّب الشمس التي أبدعت بلمعانها وقسوتها، حتى لاح من بعيد جسر (ستوري بريدج - قصّة جسر)، بمُتسلقيه المغامرين، واحتفالهم بصوت صراخهم

الذي خرق أذنيَّ، وصداه الذي اخترق زجاج ناطحات السحاب الممتدة على طول الضفة بشموخ.
اكتفيت بعبوره مشيًا على الأقدام ومياه النهر السابحة من تحتي تغزوها الزوارق التي تورّعت بالتقاط ضحكات المتسلقين الهستيرية، ربما أصيبوا بصدمة وهلع الارتفاعات، وأنا متسمرة أمام منظر خلب لبي وعقلي، الرياضيون المتسلقون يلوحون من فوقي وراكبو الزوارق يلوحون من تحتي، والفريقان ينتظران مني تلويحة... ولم أفعل.

ولبناء الجسر قصة..
جاءت فكرة بنائه من أجل إشغال الرجال بسبب البطالة التي عمّت البلاد وقتها نتيجة سقوط البورصة في نيويورك سنة ١٩٢٩ ، حيث حدثت أضرار اقتصادية كبيرة في العالم وانعكست على أستراليا أيضًا. لم تكن له حاجة، لكن الآن يعد من أهم الجسور التي تربط المناطق والضواحي بالمدينة. يبدأ في مرج (فورتتيود) مجتازا نهر (بريزبن) وحتى منطقة (كانجرو بوينت). وصمم ليكون شبيهًا بجسر (هاربر) في سيدني.

عدوتُ مجتازة الحدائق الفسيحة ورائحة الشواء تزكم أنفي، صورة العائلات المنسجمة تذكرني بعائلتي التي تركتها في البلاد، تمنيتُ لو خرجت مرة واحدة إلى الفضاء دون حياء، كي أصرخ واستنطق المنطق، أخرج روحي من روعها وأتكلم،

لكني عدت بي وأنا أحمل من بعض دمائي احتجاجًا على أسمائنا الأولى التي اندثرت بتراب الترحال في بلاد الغرب.

زوّدني التجوال بطاقة كنت أفتقر إليها، فقررت فسحة راحة بعد تناولي ساندويتش الجبن، جلست في ظل بعض الأشجار التي حملت طيورًا مختلفة، شذت بأرق ألحانها، ومنها (الغربان السوداء) و (الغربان البيضاء)، كان نعيبهم جميلاً، أو ربما جمالية المكان دعتني إلى تذوق موسيقى صوتهم المكروه في الشرق، والأجمل هو حمل الذكر منها بعض فتات خبزي في منقاره إلى فم أنثاه التي استقبلته بكبرياء وكسل، بقيت اللقمة عالقة في منقاره حتى اقترب منها فلقنها الفتات بأكمله، وعاد إليَّ منتظرا المزيد، معيدًا الكرة مرارًا وتكرارًا، وعندما أحس بشبعها، عاد مرة أخرى ليأخذ ما تبقى مني فابتلعهُ شاكرًا، وهو يحذو ببطء نحوها.

يذكرني منظر التأمل هذا بمقولة أحد الأدباء:
- " مصغيًا إلى الطيور تغني على الأشجار الندية، مرَّت عليَّ مئة عام منذ الآن، لكني كنت خلالها ميتًا وثمة شخص آخر غيري يصغي إليها".

سقطت من كتفي أعباء الذاكرة وشوقي لأحبائي البعيدين عني عندما ابتهلت عيناي برؤية البجعات بصغارها يسبحن في النهر، الصغار يحيطون الأم، والذكر يتقدمهن، منظر يبدو

عاديًا، لكنه لم يكن هكذا بالنسبة لي، ركعت أرضًا أمامها وأنا أشاطرها سعادة الألفة، أغمضتُ عيناي أمام المنظر الساحر، ورحت أتأمل حنان الأمومة، إرهاصات قلبها، وخز حنينها، وسعادتها برؤية أطفالها يحومون حولها.

وسقط جرح قلبي بين أضلعي مرة أخرى عندما نظرت حولي فمشهد آخر رائع، أسرة بكاملها تستقل الدراجات الهوائية، الأم في المقدمة، ثم الابنة، الابن والأب في المؤخرة، يحمل على ظهره حقيبة إسعاف أولي صغيرة، والذي يقوم بحماية أسرته حتى وهي تزاول رياضتها في ركوب الدراجات.

قررت الاستمرار إلى البعيد، حيث حطَّت بعض السفن مراسيها في ميناء النهر الجميل، ومنه إلى (جسر المشاة) فقطعت النهر مشيًا على الأقدام، والغيوم تلوح من بعيد منذرة بعاصفة قادمة، لم أعلم أني أتيت إلى مكان يحتوي هذا الكم الهائل من العواصف المدمرة منها، والمسالمة!

توقفت كثيرًا أمام إعلان ما:

- " ششش...شـ...شـ... هدوء رجاءً، الحيوانات في فترة التزاوج".

دخلت مكانًا يتمتع بجغرافيته الخاصة، أغلقته الأشجار المائلة، الملساء، مكان له علاقة وثيقة بالانتماء الكوني، في محمية

طبيعية في الضفة الثانية للنهر، مشيت في سبيل خشبي طويل، بين الأشجار المغروسة داخل المياه تحمل راية البقاء، العصيان والتمرد.
لم ينسَ القيمون نصب بعض المقاعد الخشبية في الممر الطويل للاسترخاء، التأمل، ولمشاهدة صنوف مختلفة من الزواحف التي تقيم في المكان، مع شرح وافٍ عن طبيعتها ومواسم ظهورها.

وكان طير (الأيبيس) (أبو قردان) حاضرًا حيث أكون، يلتقط بمنقاره الذي يشبه المِنْجل كل شيء يمكن أن يؤكل، ينثر النفايات، ويخرجها من صناديقها في كل مكان وحتى الشارع العام، يشارك المستجمين الطعام، وغالبًا يخطف اللقمة من الأيدي أو عن الموائد.

استدركني الكم الهائل من المارين في باحة (كوين ستريت ـ شارع الملكة)، ذهابًا وإيابًا، الشارع المكتظ بشتى أنواع البشرية واللغات، أمكنني الإصغاء دون فهمها، تجمعات غير عادية حول نشاطات ثقافية وعروض فنية ذكَّرتني بزيارتي لـ(غرناطة) الأسبانية لكن بغياب لوركا، والفلامنكو... كانت حاضرة معي جملة قالها الكاتب اللبناني (أحمد فرحات):
ـ " هناك ضرورة عاجلة لأن تنسى نفسك، اسمك، وعنوانك في غرناطة...".

وموسيقى هادئة تنبعث من حيث لا أدري.

خرجت من عالم البيئـة الهـادئ لأحط في عـالم عصري مختلـف تمامًـا عـن (غرنـاطـة وبرشـلونـة) وأي معلـم أسـباني آخـر، كـان الاختلاف جميلاً ومغـايرًا، لأنـي كنـت فقط فـي (بريـزبن) التـي لا تشبه أي مكان!

جلست أعدُّ أنفاسي على أحد المقاعد في سـاحة المكتبـة العامـة، استنشقتُ هواءً عليلاً، تجدد نبض قلبـي بمعرفتـي مكانًـا يمكننـي التواصل من خلاله مع أصدقائي عن طريـق الشبكة العنكبوتيـة، التي وفّرت التواصل بلغات متعددة، عدا اللغة العربية.

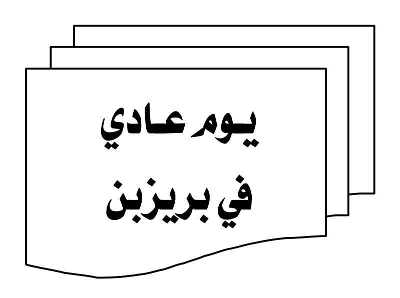
بحثـتُ بـين رفـوف المكتبـة عـن كتـاب واحـد بلغتـي، لـم أجـد، فأسرعت إلى الموظفة أطالبها بحقوقي، وقفتْ أمـامي مندهشة تتأسف لي.

مدينـة بكاملهـا، بحوانيتهـا ومكتباتهـا؛ لـم أجـد فيهـا مـا يـروي ظمأي، ولا أي صحيفة يومية من صحف بـلادي، أو كتـاب واحد أمارس من خلاله هوايتي، فأحسست حينها بضياع كامل.

لم أستطع التخلص من الرقيب الذي في داخلي، وكأني كنت على موعد مع أجمل المصادفات، المارة بحركاتهم العفوية التلقائيـة، الفتيـان فـي لحظـة التجـدد الـدائم، العشّاق فـي لحظـات عشقهم، المـسنون فـي لحظـات تحـديهم، النـساء والرجـال، والأطفـال فـي لحظة اكتشافهم.

أدخل إلى نفوس الآخرين من ثقب صغير، أحيك تقديراتي الخاطئة حولهم، أجمع في قارورة عقلي مواقفًا يمكنني تدوينها...

لكني من كل هذا استطعت أن أخرج بفكرة واحدة وأكيدة وهي أنه ليست هناك أفكار نادرة لكل هذه المواقف العصرية، سوى ما أحمله بجعبتي من ذكريات!



راقبتُ الفجر من خلال النافذة، أتى برقته متورعًا إضاءة نصف السماء التي بدت مشطورة، القسم المعتم منها احتفظ بنجومه، والقسم المضيء أخذ يتسع رويدًا حتى اجتاحها جميعها دون تردد، لكن ببطء ملحوظ.

اتكأت على حافتها استعيد ذكرى الأمس وقبل الأمس والماضي بأجزائه، بأدق التفاصيل، انتظرت اللاشيء، وقيدي كل شيء!

واجهني المدى البعيد من خلالها، والمرتفعات المحاطة بالمدينة الكبيرة، بحثتُ عن فسحة أو لمحة ما تذكرني بالوطن، لم يكن هناك أي بصيص نور لاستحضار أبسط الذكريات، لكن كان هناك شيء ما يلمع من بعيد، تلألأ واضعًا نوره داخل ناظريَّ، استراح بهدوء، كان جزءًا آخر من النهر، فقررت إتباعه، فكانت وجهة رحلتي لذلك اليوم الاتجاه المعاكس.

خرجت دون مقدمات.. التقطت زهرة بنفسجية كانت قد حطت أمامي وأنا سائرة في طريقي، كانت رائحتها شذية، ذكرتني بالزهرة التي عاصرتني والتي حملتها معي داخل صفحات أحد مؤلفاتي، كان مصيرها أخيرًا في سلة المهملات على أثر التعليمات الصارمة في المطار قبل الدخول.
وعلى طول الطريق كنت أردّد من بعض قصائدي:

- "حقيبة سفري
ليست كسائر حقائب النساء
لا مخزن زينة فيها ولا أحمر شفاه
هي مرآة فقط تعيد إليَّ سنوات الشباب...".

توهّجت الشمس، حطَّت أشعتها على رأسي، وأنا المجاهدة في وصول الهدف الذي كنت قد رأيته من بعيد، كان الهدف بعيدًا، والسبيل إليه (أي النهر) مجهول، سلكت طرقًا عرجاء، وطرقًا مغلقة، وأخرى ضيقة.. أحسست يومها بالعجز الحقيقي وأنا أتلوى بين الطرقات المأهولة بالسكان، ولم تقع عيني على أحدهم.

تعلمت أخيرًا التقيد بالتعليمات والإرشادات الكثيرة المعلقة أمامي: "شارع مسدود"، "طريق متعرج"، "نهاية طريق"، "سبيل للمشاة فقط"، "سبيل للدراجات الهوائية"، "الطريق إلى المقبرة". فاخترت: "الطريق إلى الأتوبيس النهري".

استرسلت فيه حتى أخره... طريق ضيق جميل مرصوف، يتوسط حديقة جميلة، وبجانبها مباشرة حديقة أخرى خاصة للكلاب، مزودة بجميع أسباب الراحة والضروريات، كأكياس لجمع البراز، ماء للشرب، حاوية نفايات، وبعض الكرات الصغيرة المتناثرة هنا وهناك.

تابعتُ سيري بين أشجار (الكينا) التي كانت ملجأً لبعض أنواع الببغاوات، في الممر الطويل إياه الذي ذكرني بطفولتي، وبيتنا العتيق، استذكرت لحظات السلوى والصوت الباقي، دخلت في حديقة الذاكرة مجددًا، اقتنصتني اللحظة المتلبسة بالذكرى القاسية، والببغاوات الملونة من حولي تعيد بعض كلماتي، ترشدني إلى أفق عقلي وخطواتي نحو منحدر خطير لم أره، وأنا أبحث عن أفقٍ اكتظ بالأشجار.

شعرت بانتماء عجيب للمكان، وكأني ابنته وإن لم أولد من رحمه، استنشقت روائح شجر الصنوبر والكينا، لكني لم أعثر أبدًا على رائحة أبي وأجدادي!
امتلأت المنحدرات الخضراء بالشاهدات، مقبرة واسعة جدًا، على مدّ النظر، قررت اقتحامها والسير داخلها، بين السابقين الراحلين، كُتب على إحدى شاهداتها:
- "أمضى سبعين سنة من حياته سعيدًا"!

توقفتُ كثيرًا عند كلمة "سعيدا"! سبعون سنة من السعادة، أجمل هدية تعطى لإنسان يجد نفسه بمنتهى السعادة سبعين سنة... سبعين سنة؟ تساءلتْ وتساءلتْ... ولم تنطوي خطواتي التي توقفت عند كلمة السعادة إلا عندما لمحت من بعيد تاريخًا أعرفه تمامًا، علقت عيني عليه وأنا مبهورة:

- "ديميس.. توفى شابًا يوم ٢٨ إبريل سنة كذا، يعني مات ديميس المذكور تحديدًا يوم ميلادي عن عمر يناهز السابعة عشر ربيعًا... هو مات هنا ، وأنا ولدت هناك!

يا للمفارقة العجيبة!

مئة وسبعون فكرة دارت في خاطري... سبعون، وسبعة عشر، وأنا أسير بين سبعمائة قبر وأكثر، والحافلة التي اخترقت الشارع من بعيد نمرتها سبعون، ورقم الطريق سبعة... خشيت أن أذهب إلى السماء السابعة فخرجت مسرعة، لكني عدت مجددًا فيما بعد...

وصلت النهر أخيرًا، انتظرت في محطة الأوتوبيس النهري، قرأت التعليمات جيدًا، ثم لائحة التوقيت وأسماء المحطات، جلستُ أنتظر وحدي، أغيب تارةً بأفكاري إلى شؤون الماضي بذكرياته السعيدة والمؤلمة، وأعود تارةً أخرى إلى الحاضر المجهول على سطح (عبَّارة) مكتظة، جميلة، مجهزة بأحدث التقنيات.

مررنا في أماكن لا حصر لها، وكان الأوتوبيس النهري يشق المياه بخفة ومرونة، وأنا أشق نظري نحو المناطق الغافية وراء الضفة، والمتوجة بمئات السقوف البرتقالية بالأشجار المختلفة المحيطة بها دائمًا.
امتلأ النهر بالحيوانات النهرية التي تشبه النباتات، وبأزهار (اللوتس) التي كانت تغطي الأقسام الجانبية.

توقف الأوتوبيس في محطة (نيو فارم ـ الحقل الجديد)، ترجلت حيث حديقة كبيرة نصبت داخلها منصة خشبية، قامت فرقة موسيقية بعزف (سوناتا القمر) في وضح النهار.
هذا الموسيقار الألماني (بيتهوفن)، الذي استطاع تكوين الدراما الغنية الصاخبة عمقًا والغنائية الفذة، يضع بين أيدي الشبيبة هنا (سوناتته) التي ألفها ضمن ما ألّفه خلال سنوات ١٨٠١ وحتى ١٨١٢.

لم أستطع مبارحة المكان حتى انتهى العرض كي يتجدد في المساء، شعرت بنشوة فائقة كان مبررها حبي الكبير للموسيقى.

بعد فترة ما عدت مجددًا إلى المكان، حيث أحيت الجالية الإيطالية احتفالاً شعبيًا سنويًا، شاركتُ الأقدام النشيطة في عصر حبات العنب الأحمر الصغيرة لتصبح فيما بعد نبيذًا معتقًا... طقوس جميلة أعادتني مجددًا إلى اليونان وجُزرها.

ولنعد إلى (نيو فارم) المشرفة على النهر. غصتُ داخل متحف، أو بالأحرى إلى سجن حُوِّل إلى متحف عُرِضتْ فيه بعض اللوحات. صعدت سلالم السجن القديم بجدرانه الحقيقية الناطقة وزعت اللوحات عليه بتقنية فخيّل لي أن الصور تتكلم، كانت برهانًا على خاتمة نهاية السجون.

تذكرت بعض ما قاله شاعر عراقي يقيم هنا:

" لا تطلق الحرف على الجدار ، ربما الجدار ينهار ،
ولا تقفز مرة واحدة ، خلف خطوط هذياني
من السلام الذي مات ، السلام مات..."

السلام لم يمت هنا، بل الهدأة وروعة الحياة! السجن الحقيقي يستوعب الجناة، كتب في صدره، (مكان للحماية)، السجن هنا مكان لحماية الجناة!

غريب أمري، العودة إلى المقارنة الدائمة، فها أنا أقارن اليوم سجون (بريزبن) القديمة التي تحولت إلى متاحف يؤمها السياح، فيشعرون بنوع من الاسترخاء فيها.. وسجن (الكتراز) والذي حوَّله الأمريكان إلى متحف، ما يزال يحمل صفة السجن، حيث احتفظ بكل أدوات التعذيب والعقاب.

كان وصول (الكتراز) بمثابة الوصول إلى عصور العزل الإنساني، حيث أُنشئ داخل جزيرة بقرب ميناء (سان فرنسيسكو). أذكر أني لم أستطع المكوث فيه أكثر من خمس

دقائق ورحلت، عكس ما حصل معي هنا، حيث جلست في مقهى مشرف على النهر، كان في السابق مكتبًا لموظفي السجن، وتحوَّل ليكون مكانًا للاسترخاء والتمتع، حتى السجناء في (بريزبن) يحظون بمنظر النهر الهادئ ينسيهم القيود!

انتهت الرحلة، وعاد بنا الأوتوبيس من حيث بدأ، المحطة الرئيسية له في (ساوث بانك)، منها استطعت الانتقال حيث الاتجاه الآخر للنهر.

انتقلت إلى ناحية أخرى وعيني معلقة على جزء آخر من المدينة، كان هناك سباق للزوارق، العشرات منها، كل زورق يرتاده ستة أشخاص وطفل، ربما كان في التاسعة من عمره، يمتطي مع المتسابقين المركب محفزًا، يصفر بصفارته بين الحين والحين، يوجِّه ويقود الآخرين بصرامة.
عشرات الأطفال يقودون الزوارق، وعشرات العيون ترقب الحدث الهام... وأنا أراقب من بعيد الشمس التي بدأت تختفي وراء السحب الغليظة، أتأمل الشخوص المبنية منها، الوجوه التي ستتناثر سريعًا وستتحول إلى قطرات ماء، والأشكال التي ستسقط حتمًا.
وصلنا إلى منطقة ما في النهر نستطيع رؤية جمال ناطحات السحاب، والتي سرعان أن اختفت لتظهر مجددًا خلفنا... كانت الرحلة أشبه بمرور على ظهر تنّين عملاق.

عدت أدراجي إلى البيت، وأنا ممتلئة حيرة بأمر (تمارا) التي تركتني أتخبط وحدي في هذا العالم الجديد، دون رفيق يقاسمني كل هذا الجمال.

القادمون عن طريق البحر

" لن نغامر بالجواب...
لأنه لا جواب هنا "

جان دمو
شاعر صعلوك عراقي توفي على
قارعة الطريق في أحد شوارع سيدني

هبط عليَّ سائق تاكسي من حيث لا أدري سألني عن وجهتي، جلست في الخلف وأنا أرشده إلى طريق عودتي، عرّفني على اسمه وأراد التعرف عليّ وسألني سؤالاً كبيرًا، تفاجأت به:
- هل وصلتِ عن طريق البحر؟

وكان هو أحد المهاجرين الإيرانيين، الذين وصلوا عن طريق البحر بطريقة غير شرعية، اعتقدني إحدى الراحلات بحرًا، مدعيًا أنه رآني في الصحف، أو في التلفاز، أو في مكان ما لا يذكر أين.

تحمستُ للموضوع، اعتدلت بجلستي، وأصغيتُ للسائق الذي رمى لي حجرًا لم يحط إلا في حضني، فأنا التي دوَّنت معاناة النازحين بحرًا، في روايتي (تراتيل عزاء البحر) سجلَّت أحداثًا كانت شاهدة على الذين لم يصلوا برَّ العمر، وهؤلاء الذين لهم في أعناقنا ما ستدونه الكلمات، وعلى ما أظن؛ ولا أقولها جزافًا؛ أني وصلت إلى مجساتهم بالنيابة عن أرواحهم التي ابتلعها البحر، أنا التي تركت بعض تراتيلهم موثقة للذين يحملون رايات بيضاء وتركوها في منتصف المحيط وهم يبحثون عن برٍّ لأمانهم.

(علي) السائق كان أحد الذين وصلوا ولم يأتِ عليهم شيطان البحر، إلى بلد آمن منحته الجنسية بعد انتظار ربما كان طويلاً.

لقد مررت بالتجربة ذاتها من خلال الرواية قبل رحيلي، اكتشفت خبايا دوَّنتها وكانت صحيحة، والدليل على ذلك بعدئذٍ تعرفي على مجموعة لا بأس بها من بعض الذين خاضوا مخاض الأمواج العاتية، هؤلاء الأبرياء الذين حملوا كل إعلان الغباء، وفاتهم الوعي الداخلي وأصبحوا بعد ذلك ضمن الوعي المعلن عنه في الصحف الأسترالية وشغلت قضيتهم المسئولين طويلاً.

كان هناك العراقيون، الفيتناميون، الأفغانيون وآخرون كثيرون، قاموا برواية قصصهم أمامي بحماس ظاهر، ما حدَّثت به العالم

أجمع، وكنت كلما سمعتهم أتتبع خطواتهم من خلال الصفحات، وهم لا يعرفون بعد من أكون.

وكان لي لقاءٌ طويلٌ مع خمسة منهم، كلٌّ أتى بمبادرته الشخصية راكبًا البحر من أوطان مختلفة في عبَّارة مختلفة.

جلسنا حول دائرة مستديرة في مقهى عصري صاحبه لبناني، في إحدى ضواحي (بريزبن) تدعى (الويست إيند - الطرف الغربي)، جمعتنا اللغة الإنجليزية أحيانًا؛ والعربية في أحايين كثيرة، بمبادرة (علي) سائق التاكسي، و(علي الشاب) أفغاني، (سيد حسن) عراقي (د. سعد) عراقي أيضًا، (مانو) تايلاندي الذي فضَّل الاستماع فقط وعدم مشاركتنا الحديث لعدم إتقانه اللغة، و(بلفا) رجل إندونيسي الأصل.

استمعت إلى همومهم الجماعية، قصُّوا أحداثا وذكريات لا تنسى، اتفقوا أحيانًا على نقاط معينة، ومنهم من عارض الآخر بقوة، ومن لم يفسح المجال لزميله الاستمرار بالحديث، جميعهم أرادوا أن يقولوا، ولا واحد منهم استطاع سماع الآخر، لأن الذكرى العمياء أخذت تنخر نفوسهم المتعبة مجددًا، فعلا الصوت دون مبرر. عادوا إلى الماضي المحزن الذي قادهم أيامًا طويلة في رحلة البحر القاتم ليلاً، والمحيط الخائن نهارًا.

استمروا بالحديث وأنا ضائعة بينهم أشاركهم همومهم بصمت، كان ينحدر الحديث إلى العربية لسهولة التعبير، مستشهدين

بـأقوالهم، منــوهين علــى أحــداث حقيقيــة قــادتهم إلــى ركــوب المخاطر في محيط لا بدايـة لـه ولا نـهايـة، تكلمـوا عن عـائلاتـهم التـي تركوهـا، الأحـوال الاقتـصادية البائـسة، الأحـوال الـسياسية والاجتماعيـة فـي وطـن الأم، والأحـداث المخيفـة التـي خاضـوها أثناء الرحلة، الموت الذي رأوه، التيه، الشمس الحارقة، القلق، دوران البحر، العطش والجوع.

تحمـس (علـي الـشاب الأفغـاني) بقـص حكايتـه، هـو شـاب قـوي ذكي ولطيف، ركع فقبّل الأرض حامدا ربه أنـه أصبح أخيـرًا فـي وطن يضمن له حقوقه حيث منحه الحرية والأمان:
ـ لا أستطيع نسيان حادثة مبكية حتى آخر يوم في عمري...

استرسل وطلب من الجميع منحـه فرصـة التحـدث دون مقاطعـة، وسألني:
ـ هل كتبتِ مرَّة عن طفل يولـد مـن رحـم أمـه وهـي غارقـة فـي البحـر فيغرق بعد ولادتـه مباشـرة والمـشيمة تطفـو علـى سـطح المـاء...

صمت قليلا وكأنه يبكي ثم استرسل قائلاً:
ـ لـم يـستطع أحد منـا إنقاذهـا، عنـدما سقطت مـن العبـارة بينمـا كانت تخوض مخاض الولادة... طلبت منـا نقطة ماء لتـشرب، لـم يكن هناك ماء. نظرت إليَّ بعينيها الميتتين، كانت عيناها ميتتين بالفعل، رأيتـهمـا وهمـا تموتـان، نعم ماتـت عينـاهـا أولاً، وظلَّـت

واقفة تحاول الولادة وحيدة، لم تهتم لأي شيء سوى التخلص من ألم المخاض، كانت ولادتها عسيرة ولم يساعدها أحد، كنا جميعًا نحاول نجاة أنفسنا من السقوط إثر الموج الهائل الذي تدفق علينا دون هوادة كالجبال...!

توقف (علي) وهو يشهق بكاءً، وزملائه يغوصون هم أيضًا في صمت معذّب، وكنت أكيدة من أنهم وأنا لم نكن لنستطيع التكلم أو التعقيب. توقف الحديث، ظهرنا معًا وكأننا نشيِّع الآن تلك السيدة وطفلها.

استمعت إلى ملف آخر وآخر وآخر، لكني لم أستطع تضميد جراح هؤلاء الأبطال، لهذه المسيرة والطريق الصعب الذي سلكوه، وبقيت فكرة واحدة تستحوذ على عقلي، وهي موضوع الإيمان، فلو لم يؤمن هؤلاء الرجال بالله عز وجل لمَا كتبت لهم الحياة، ولمَا استطاعوا التغاضي عن المشاكل الجمَّة التي واجهوها، ومن ضمنها الجوع.

أكد لي (سيد حسن) إيمانه، مظهرًا لي الصلة بين الصيام والجوع الذي داهمهم أيامًا بلا رحمة، مستشهدًا بالآية:
(ولا تبذر تبذيرا. إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) (سورة الإسراء، الآية ٢٦-٢٧) قائلاً:
- صحبت معي سرَّة (كليجة) (عبارة عن كعك مبسوس بالزيت ومحشو بالتمر مخبوزًا، بطيء التعفن) أكلت القليل منها في

المساء فقط وكأني صائم رمضان كي لا أموت جوعًا، وهكذا استمر الحال.. كنت أشعرُ بجوع مميت، ربما لأنه لا يوجد شيء يلهيني، كان همُّ الجميع النجاة، وكان همّي الوحيد مراقبة أفول الشمس ليأتي موعد الإفطار.

إذن البطاقة التموينية لهؤلاء المعذبين كانت ترديد الآية القرآنية المذكورة كلما أكلوا ولم يشبعوا، وكلما جاعوا وامتنعوا عن الطعام القليل الذي كان بحوزتهم.

لم يستطع (علي الشاب) التغاضي عن حكايته والجوع، شارحًا لي كيف اكتفى برغيف وحيد بقي معه، وذلك عندما قام بكسره وطحنه إلى أجزاء صغيرة، حيث كان يخرج القليل من جيبه ويأكله دون أن يلحظه الجوعى الآخرون.

هو التقرب من الله وطلب الرحمة والغفران أسباب مقنعة، تحويل الجوع إلى مشروع إلهي لتحدي الصراعات والبقاء على قيد الحياة، واعتقادهم السائد بمحو جميع الذنوب التي ارتكبوها في حياتهم والتي لم يرتكبوها، معتمدين على قول الله تعالى :
(قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) (سورة التوبة، الآية ٥١)
فأراهم حقًا سعداء بإيمانهم.

وكانت الآراء في الحكومة الأسترالية حول هذا الموضوع متناقضة ومتشابكة، فهناك الموافقون على استيعاب اللاجئين مراعين ظروفهم من الناحية الإنسانية، وهناك المعارضون الذين أبدوا استياءهم الكبير حول الموضوع.

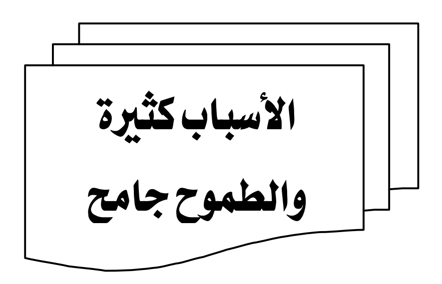
وحسب ما صرَّح به رئيس الوزراء (سابقًا) جون هاوارد:

"إن طالبي اللجوء ومهربيهم يبتدعون الوسائل لإخافة السلطات. إنهم يعرفون أننا سننقذهم... إنهم يخططون لتعطيل سفنهم حال دخولها المياه الإقليمية الأسترالية كي نمنع إعادتها...".

وحسب تقارير سنة ٢٠٠٤ هناك ٥٠٠٠ طالب لجوء غير شرعي، وقد قامت الحكومة الأسترالية التشديد على هذا الأمر، خاصة بعد صدامها بتعقيدات لا حصر لها جراء حادث إنقاذ سفينة الشحن النرويجية، والتي كانت تحمل على متنها ٤٠٠ لاجئ أفغاني كانت قد غرقت مراكبهم.

ومن أهم التصريحات الواردة بهذا الصدد، اللجوء الشرعي والقانوني، معللة الحكومة رفضها استيعاب اللاجئين الذين يصلون عن طريق (النافذة) حسب قولهم، محبذين طرقًا وأبوابًا مشروعة.

وإن عدنا لأحداث قديمة جرت، فيتبادر إلى أذهاننا اسم مشهور جدًا، يتداوله الأستراليون بعزة وفخر، والذي غزا أماكن وشوارع لا حصر لها هنا، اسم... (الكابتن كوك).



الأسباب كثيرة والطموح جامح

(لا تعجبي إن هَرمتْ نخلةُ عمري
قبل أن يبتدئ الميلاد
لا تعجبي ...
فالجذرُ فِي "بغداد")

يحيى السماوي
شاعر عراقي مقيم في أستراليا

دأب الإنسان؛ وعلى مر العصور؛ على اكتشاف المناطق المجهولة، البحث عن الحرية والأمان، التنقيب عن الذهب والأحجار الكريمة، توسيع نطاق الريادة والتجارة العالمي، الاجتياح، والانتشار الديني والحجيج.

كان الإنسان القديم أول المكتشفين، كي يضمن بقائه على قيد الحياة، باحثًا عن مصادر الماء والغذاء.

وجـاء عـصر الأشـرعة ليتـصدر أهـم الاكتـشافات. فوصـل المـصريون القـدماء إلـى إثيوبيـا عبـر النيـل، والفينيقيـين (٦٠٠ ق. م) وصـلوا (البحـر الكبيـر) بدايـة مـن البحـر الأحمـر وحتـى (عمود هوركليس). الإسكندر المقدوني عبر عن طريق اليابسة آسيا الصغرى، ثم الرومـان الـذين توسعوا حتـى حدود اسكتلندا شـمالاً ونـهـر الـدانوب شـرقًا، وحتـى الأوروبيـين الـذين عُرفـوا بالصليبيين.

وذاع صيت أهم الرحالة لاكتشافهم أماكن عديدة، فكـان (مـاركو بولو) الإيطالي، و(كريستوفر كولومبوس) الإيطالي أيضًا، الذي اكتشف أمريكا حيث كان هدفه إيجاد طريق إلى الهند بحرًا.

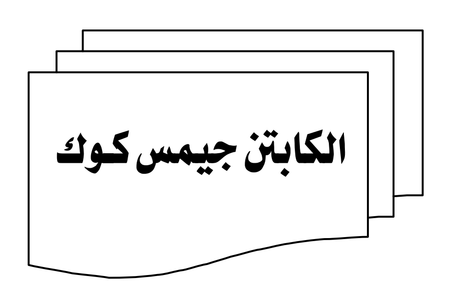
(فاسكو ديغاما) البرتغالي، أول مكتشفي الهند عن طريق آسيا، وصل الحدود الجنوبية لأفريقيا واستمر شمالاً حول شواطئها حتى وصلها (ماجلان) البرتغالي أيضًا.

ولن يفوتنا طبعًا ذكر الرحالة العرب (ابن بطوطة)، (ابن جبير)، (اسحق بن حوقل) وغيرهم كثيرين.

ثم وصل الفرنسيون إلى أمريكا واكتشفوا فيها مناطق جديدة، والبحار الهولندي اكتشف يابسة تدعى اليوم (أستراليا) وجزيرة (تسمان) (تسمانيا) ونيوزيلاندا.

واكتشف الرحالة الإنجليزي (كوك) الجزر في المحيط الهادئ، والتي تدعى بجزر (هاواي)، ووصل (ديفيد ليفنستون) حتى نهر زيمبابواي.

وفي سنة ١٩٠٩ اكتشف روبرت بيري الأمريكي؛ القطب الشمالي، وفي سنة ١٩١١ اكتشف رولاند أموندسون القطب الجنوبي.



• الرحلة الأولى

ولد الكابتن (جيمس كوك) في ٢٧ أكتوبر سنة ١٧٢٨م وتوفي في ١٤ فبراير سنة ١٧٧٩ في مقاطعة (يورك شاير) الواقعة على نهر (طيز) بقرب منطقة (ميدلسبروا) تدعى اليوم، شمال شرق بريطانيا. من أب فلاح كان يعمل في مزرعة أحد الرجال الأرستقراطيين الذي اكتشف موهبة الصبي فأشرف على تعليمه الابتدائي. فقد في صغره خمسة أشقاء، وبقيت له شقيقتان على قيد الحياة لم يستطع الحفاظ على صلته بهما.

ترك البيت وهو في العاشرة من عمره وأقام في (ستايزس) الواقعة على بحر الشمال. بدايةً عمل كصبي مساعد لصاحب بقاله. كانت وجهته دائمًا السفن محاولاً اختراق الحواجز باذلاً جهدًا كبيرًا الدخول في ورشات مختلفة تمت بصلة.

عمل تسع سنوات في شحن الفحم وأقام في بيت صاحب العمل، درس خلالها الجبر، علم المثلثات، الملاحة، وعلم الفضاء.

تعلم حرفة الإبحار، التحق بعدة ورشات عمل لبناء السفن، وفي سنة ١٧٥٢عين قائدًا مساعدًا لإحدى السفن، وبعد ثلاث سنوات ارتقى ليكون قائدًا رئيسًا عليها، لكنه فضل الالتحاق بالجيش الملكي واشترك بعدة معارك ضد الفرنسيين والهنود، حينها حصلت اشتباكات بين الإنجليز والفرنسيين تنافسًا للاستحواذ على كندا.
واستطاع بمثابرته الارتقاء بالرتب والمناصب بشكل سريع.

أرسل (الكابتن كوك) في رحلة عبر الأطلسي هدفها اكتشاف جزيرة واقعة شمال كندا، لم يعتمد حينها على الخرائط، نجح في مهمته وعاد إلى بريطانيا يكب على رسم الطريق والخرائط المؤدية إلى هناك، لقّب حينها بلقب سام كخبير في مجال رسم الخرائط ، كانت بمثابة له قفزة عظيمة إلى الأمام.

سنة ١٧٦٢ اقترن بـ(إليزابيث) ابنة مالك فندق في مدينة لندن، وأنجبت له ستة أبناء عاش منهم ثلاثة، وكانت رفيقته في الترحال من مكان إلى آخر.

وفي الأربعين من عمره استطاع الحصول على لقب (سير) واحتل مكانة مرموقة في المجتمع الأرستقراطي آنذاك.

كـان طويـل القامـة ونحيفًـا، يظهـر فـي إحـدى الـصور عـريض المنكبين، وذلك لأن الرسـام استعمل بـديلاً لـه يـستطيع المكـوث أمامه مدة طويلة.

وفي سنة ١٧٦٨ أختير ليكون علـى رأس بعثـة لمراقبـة الفلـك، خـرج إلـى (تـاهيتي) كـي يراقـب حـدثًا هامًـا، وهـو عبـور كوكـب (فينـوس) الزهـرة وجـه الـشمس، وهـي ظـاهرة نـادرة يمكـن اقتنــاص الفرصــة لقيــاس دقيــق بُعـد المــسافة بــين الأرض والشمس، والمعروف أن البعد هو ١٤٩,٥٩٧,٨٧٠,٦٩١ كم. طُلـب منــه بالإضـافة؛ التحـري حـول اليابـسة الـساكنة جنـوب الأطلسي التي كانت تدعى (تيرا أوستراليز).

تعرض (كـوك) لمـشاكل كثيـرة مـع سكان (تـاهيتي)، وعـصيان بعـض الأفـراد مـن طاقمـه أيـضًا، الـذين أرادوا المكـوث فيهـا، فاضطر إلـى خطف بعض الأفـراد (التـاهيتيين) فحصلت مبادلـة فاستعاد رجاله.

استمر إلى نيوزيلاند، لم تكن رحلتـه هادئـة فقد تعرض لهجوم عنيـف خـسر بعض رجالـه، كـان مـن ضـمنهم قبائـل آكلـة لحـوم البشر، التهموا عشرة من رجاله على مرأى عينيه.

وصل شرق القارة الأسترالية، حيث كانت على طريق عودتـه اكتـشف مكانـا أسـماه مينـاء (بوتنيـك) (نبـاتي)، وعنـد عودتـه

وصفه بدقة أقليميًا وجغرافيًا حيث أرسلت إليه بعد تسع سنوات أول إرسالية من السجناء، لكنهم وحسب ما خطط لهم لم يمكثوا في المكان، فجنحوا إلى ميناء مقابل حيث أقيمت مدينة تدعى اليوم (سيدني).

▪ لقاء الكابتن (كوك) مع السكان الأصليين (الأؤبرجيين)

لأول مرة التقى الكابتن (كوك) بالسكان الأؤبرجينيز لاحظ تأخر ثقافتهم عن الأوروبيين عشرات آلاف السنين.
بداية، قوبل الرجل الأبيض من (الأؤبرجينيز) بتجاهل واضح ولا مبالاة، اعتقادًا منهم أنهم حتمًا سيرحلون، وقد كتب الكابتن (كوك) عنهم:

- " هم أكثر سعادة منا نحن الأوروبيين.. يعيشون بهدوء.. الظروف الصعبة لا تضايقهم... الأرض والبحر والموارد القليلة تكفيهم... دون أن يجتهدوا ".

لم يستطع الرجل الأبيض التوغل في اليابسة القفراء، فحبذ الكابتن (كوك) اكتشاف القارة بحرًا.. وخلال إبحاره بمحاذاة الشاطئ اعترضته منطقة مرجانية على طول الساحل. لكنه بالرغم من ذلك استطاع نصب العلم البريطاني هناك وأطلق عليها اسم (نيو ساوث ويلز) .

وفي طريق عودته توقف في (جاكارتا) كما يطلق عليها اليوم، عاصمة (أندونيسيا) دهش لاستقبال السكان له وترحيبهم، أصيب الرهائن من (تاهيتي) في حمى (الطازينتيريا)، لقوا حتفهم ومات معهم ٢٢ من مرافقيه.

وفي سنة ١٧٧١ رسا مجددًا في شواطئ بريطانيا. عاد الرحالة (جيمس كوك) إلى الوطن ومعه أربعة وتسعين رجلاً؛ نصف عدد المجموعة التي رافقته.

• الرحلة الثانية

قام الكابتن (كوك) برحلة اكتشاف ثانية، سنة ١٧٧٥ـ ١٧٧٢، وكانت الوجهة المقررة هي القارة الأفريقية عبر المحيط الهادئ فكان أول من عبر مدار القطب الجنوبي، ومن بعده بخمسين عام عُيِّن خط العرض ٧١.

توقف هناك، في مجال الرؤيا أمام التلال المغطاة بالثلوج كثيرًا، ودوَّن في دفتر مذكراته:

ـ " طموحي يأخذني ليس فقط إلى مكان بعيد أكثر بعدًا من أي قدم رجل قبلي، إنما أطمح إلى البعيد البعيد، حيث تستطيع قدم الإنسان الوصول".

وفي أثناء عودته تعرض الكابتن (كوك) إلى وعكة صحية، كان قريبًا من الموت، بسبب قلة الموارد الغذائية الطازجة. لكنه استفاق منها واستمر إلى أنترنتيكا.

عدد رحلات الكابتن (كوك) ثلاث رحلات، وحسب عدد الكيلومترات تعادل محيط الكرة الأرضية بثماني مرات.

• سهم وورقة

الرجل الأبيض الأول الذي وصل جزر هاواي، والتي دعاها بجزر (الساندويتش) ونيوزيلاند الكابتن (جيمس كوك) يفوز بميتة تراجيدية على يد أحد الهنود أثناء صدامه معهم على شواطئ (كيلكوكوا) إحدى شواطئ جزر هاواي سنة ١٧٧٩.

حيث هاجمه من الخلف وبصورة مفاجئة، وحسب ما ورد في مذكرات طبيب الرحلة، أن (كوك) سقط على ركبيته جراء الضربة، واتته ضربة أخرى حاسمة من رجل هندي آخر، حيث طعنه بقضيب من حديد في عنقه.

خطف المهاجمون الجثة وهربوا، وبعد عدة أيام أعيدت إلى السفينة حيث دفنت في الماء.

أطلقت إشاعات كثيرة بصدد الجثة المعادة، فقيل إنها لم تكن للكابتن (كوك)، التي بقيت على الشاطئ، وشائعة أخرى تقول إن الجثة لم تعاد بكاملها، حيث احتفظ سكان المنطقة ببعض الأشلاء، وأخرى تقول بأن الجثة أُحرقت بطقوس معترف بها لدى قبائل المقيمين هناك.

وفي حوالي سنة ١٨٢٠ استطاع أحد الرهبان التعرف على بعض الأشلاء وبقايا ثياب تعود للكابتن (كوك) في (معبد الإخصاب) بمنطقة (كيلكوكوا).

وفي سنة ١٨٩٤ وصل سهم مضمن بورقة كتب فيها خبر نادر، وهو أن السهم المذكور مصنوع بجزئه من إحدى عظمات القدم اليسرى للكابتن (كوك)، وقُدِّم للمتحف الأسترالي في مدينة سيدني.

ومن حيث انتهت الحكاية تبدأ حكاية أخرى أكثر حماسة وهي محاولة التعرف على العظمة. بدأت التحريات حول الموضوع وأهمها الحصول على نتائج مرضيه أولها أن تكون العظمة لجسم بشري.
دخلت العظمة إلى أوروبا بطريق الصدفة عن طريق ملك هواي وزوجه في زيارة لبريطانيا حيث حلا ضيفين على الملك جورج الرابع، داهمتهما الحصبة وتوفيا هناك، لكن قبل الوفاة أهدى ملك هاواي السهم للملك البريطاني.

ويستمر التحقيق في الأمر... وحتى ظهور النتائج يقبع السهم حاملاً جزءًا من عظمة القدم اليسرى، داخل درج بجانب سرير الكابتن (كوك) وحذائه في المتحف الأسترالي في سيدني.

نقل منزل الكابتن (جيمس كوك) من بريطانيا إلى (ملبورن) يتوسط حديقة جميلة، نُصِب في مدخلها تمثالٌ له.

• الكابتن كوك

هل هو محقق الأحلام أم حاصدها

أصبح الكابتن الرحالة (جيمس كوك) حاصد الأحلام ومحقق الأهداف، وبطلاً يُحتذى به، فبدأ تيار المهاجرين والمغامرين يلحق بموكبه إلى العالم الجديد.

خرج معه سنة ١٨٥٠ إلى نيوزيلاند ٤ سفن، آثرين الحياة في أرض مقفرة، فكانت أحلامهم كبيرة تتعدى حدود القارة الأوروبية بكثير، حتى لتصل إلى صنع بديل لها، بل أكثر خطورة منها.

وفي رحلته إلى جزر (هاواي) فهو أول مكتشفيها كما ذكرت آنفًا، تبعه المهاجرون بدون حدود.

وفي (تاهيتي) التي تضمنت الكثير من الأحداث الغريبة. استطاع (كوك) السيطرة على السكان الأصليين، وعلى طاقمه أيضًا الذي تمرد عليه عدة مرات رافضين العودة معه.

لأول مرة يلاحظ (كوك) الوشم (التاتو) وهو الذي أتى به إلى أوروبا.

أهتم كثيرًا بموضوع الوشم فمن الرسومات الموشومة على أجساد سكان (تاهيتي) استطاع التعرف على حضارة السكان الأصليين التي تعود إلى آلاف السنين قبل الميلاد. اعتمدت النساء رسومات تختلف عن الرجال.

سمح لطاقمه اعتماد الوشم بنية التقارب حتى يستطيع الولوج إلى اكتشاف المكان بدون مقاومة.

وتنتشر هذه الظاهرة في أستراليا الآن، ورغم نظرة البعض السلبية لها، لم تعد تنتقد، فأصبحت تقليعة محببة بين الرجال والنساء على السواء.

كتب (كوك) في مذكراته عن ظاهرة لأول مرة يراها، وهي التزلج على الماء في (تاهيتي) التي وصلها سنة ١٧٧٧ ، استخدم المتزلجون ألواحًا خشبية قليلة العرض طويلة مسطحة، وتعتبر أستراليا الآن أكثر الدول مع (هاواي) و (المكسيك) استقطابًا للمتزلجين على المياه.

كانت رحلات الكابتن (كوك) عبارة عن إيجاد بديل للوطن الأم للذين هم بحاجة إلى وطن، فوزَّع أحلامه على السجناء والمنبوذين، فحلموا بمكان يفوق بمواصفاته، لكنهم وصلوا كي يجدوا أمامهم أرضًا خالية إلا من بعض القوم، لا شبيه لهم، ويتأخرون عنهم ثقافة آلاف السنين، رأوا فيهم الوحشية والبربرية، لم تكن بينهم لغة مشتركة، بل كانت نظرتهم لهم دونية.

وعندما اختار (كوك) مكانًا للاستيطان في (سيدني) أسماه (بوتنيك لاند ـ أرض النباتات) أو الخضراء، وبعد أن رست ١١ سفينة، وعلى رأسها الكابتن (أرثور فيليب)، كان على متنها ٧٥٩ سجينًا، اكتشفوا فيما بعد أن الأرض لا تصلح لحياة بسبب عدم وجود مياه عذبة فيها.

انتقلوا إلى ميناء آخر (ميناء جاكسون) حيث نهر (براماتا)، تحتفظ المنطقة باسمها ومعالمها القديمة للآن، قريبة من منطقة (ميريلاندس) التي يقطنها الكثير من العرب.

وعلى مدار أكثر من ٦٠ سنة هاجر إليها المزيد، خاصة بعد حرب الاستقلال الأمريكية حيث توقفت الإرساليات إلى شمال أمريكا من بريطانيا. فاختيرت قارة أستراليا سنة ١٧٨٨ لتكون البديل.

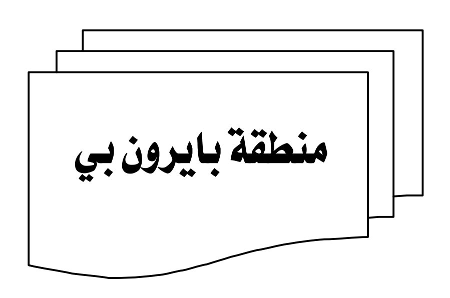
حاول المهاجرون استصلاح الأراضي، فشلوا بذلك تمامًا، لم يروا منتوجًا يفي احتياجاتهم، فأحسوا بالفشل مرتين: مرة عندما أبعدوا عن جذورهم، ومرة أخرى عندما فشلوا في تحقيق الحلم.

لم يكن لهم خيارٌ إلا الاستمرار بما بدأوه، فانتشروا في الربوع الخالية، بحثوا عن مصادر رزق تقيهم من الجوع الأكيد، خاصة عندما بدأ الاعتماد ليكون محليًا، فكانت الأماكن موحشة تكتسحها الغابات، ناهيك عن صداماتهم المريرة مع السكان الأصليين الذين أبدوا معارضة مميتة ضدهم؛ ما زالت آثارها في النفوس حتى اليوم.

بالمناسبة، قام الرئيس (كيفن رود) بالاعتذار نيابة عن جميع من ساهم في إيذاء المواطنين الأصليين، وسلبهم للأجيال، يوم ١٣-٢-٢٠٠٨ ، في احتفال خاص في العاصمة (كانبرا).

سفينة (دولفين) هولندية كانت قد سبقت سفينة الكابتن (كوك) إلى (تاهيتي)، كانت محطمة تمامًا، رفض (كوك) تزويدها بالمسامير خشية احتياجه للمؤونة، فكانت المسامير أكثر ندرة وثمنًا، واستعملها بعض مرافقيه خفية كعنصر للتبادل مع نساء (تاهيتي) اللواتي استطعن غزو عقول الأوربيين. وعندما عاد إلى بريطانيا عاد ومعه صندوقًا واحدًا من المسامير.

• • •



"إذا طال فينا دواء الأبد
وما مرَّ قرب صليبي أحد
رحتُ أناديكِ تحت الرماد
فقولي امتطى غيمة وابتعد"

سعد حمزة

شاعر عراقي مقيم في أستراليا

توقظني (تمارا) صباحًا، فتخاطبني بكل حماسة معتذرة لي تأخرها، وتخبرني بموعد عودتها ليوم واحد، حيث ستصحبني لأقضي بعض الأيام لدى والديها، حتى حين عودتها من تغطية برنامجًا توثيقيًا في (إندونيسيا).

لم تكف (تمارا) عن التحدث عن نفسها وعن إنجازاتها الكثيرة، تطلب رأيي بمواضيع وحوارات مختلفة ستجريها لصالح صحيفة يومية. معتذرة تأخرها، مرشدة إياي إلى أهم الأشياء

بصفتي قادمة جديدة، والأماكن التي مررنا فيها بسرعة جنونية فائقة، وأنا لا أترك مكانًا وإلا ووضعت فيه بصمة نظراتي المسحورة بجمال الطبيعة الأخاذ.

- ستحبين المكان كثيرًا.

وأردفت قائلة أيضًا:

- كاتبه رومانسية مثلك لن تبارح المكان حتى تخرج بنوبل منه.

خشعت أمام المنظر الذي كان أمامي، أو الحقيقة تقال هي أني خشعت خوفًا من هذا العملاق الذي يبدو أمامي بكل هذا الارتفاع، لأول مرة أعهد بحرًا بهذا السمو!

ظهر المحيط من خلف المرتفعات ليكوِّن لدي حاسة تذوق ومشاهدة جديدة، الألوان الرائعة التي أحب، والأرض الخضراء المحيطة بموكبنا السائر دون تحفظ، الخضرة تعم المكان، الأزهار بجميع أطيافها، نقاط مطر رهيفة تتلألأ على أوراقها، أشعة الشمس التي كانت تحتجب تارة خلف الغيوم المشبَّعة بالماء وتظهر تارة في سماء صافية، عدة أقواس قزح تظهر معًا في وجه السماء الملبدة بالغيوم، ينزل بعض ثقلها، تغيب الشمس مجددًا لتعود بعد برهة كي ترمي عبئها من جديد ليبدو المكان وللحظات أيضًا ماطرًا مكفهرًا.

انحدرت (تمارا) بسيارتها بأقصى سرعة إلى بيت والديها اللذين قررا قضاء الباقي من عمريهما في خلوة تامة وسحر الطبيعة، في ماراثون غير عادي لتصل بعد ساعتين تقريبًا منطقة (بايرون بي) وهي منطقة ساحلية تقع في أقصى شرق ولاية (كوينزلاند) على حدود ولاية (نيو ساوث ويلز)، وتبعد حوالي ٧٩٠كم من مدينة (سيدني)، وعدد سكانها ٦٠٠٠ نسمة.

تكونت المنطقة من عدة جبال بركانية، و(بايرون بي) رأس جبلي يشبه اللسان ممتدًا يكسر شواطئ المحيط الثائر بأمواجه. مدينة سياحية جميله وهادئة، يؤمها المتزلجون وراكبو الأمواج والفضوليون أمثالي.
كانت سابقًا مستوطنة للفلاحين ومصنعًا للألبان، لها ميناؤها ومنارتها. تكثر السلاحف، الدلافين، والحيتان فيها.

عمل والد (تمارا) حارسًا ليليًا للمحمية الطبيعية في المنطقة، واحترفت والدتها الرسم، وكانت تدير دارًا للفنون، كانت لي بمعيتهما أجمل وأثمن الأوقات، اضطررت خلالها برمجة يومي المبتدئ مساءً والمنتهي فجرًا.

صحبني (سميث) والد (تمارا) وهو من أصول إيرلندية معه إلى عمله، بعد إلحاحي الطويل، مدوِّنة بذلك أحداثًا نادرة لن أنساها.

▪ الليلة الأولـى

هبّت عاصفة مفاجئة، تلاطمت الأمواج فغمرت الشاطئ بأكمله، انقطع التيار الكهربائي وذعرت طيور الليل التي أخذت تتسابق إلى ملاجئها، كان همّ (سميث) هو حمايتي أولاً، وثانيًا محاولة نجدة السلاحف البحرية التي ملأت الشاطئ بعشراتها أثناء المد والجزر، حاولنا جرفها نحن الاثنان إلى الماء؛ فتعود بها مجددًا، معرضين أنفسنا للغرق الأكيد.

لم يعلم بعدم اتقاني السباحة، ولم أعلم أني أستطيع السباحة إلا في ذلك الليل العسير، لم أفكر بالغرق بقدر ما فكّرت باجتياز مغامرة مائية كنتُ بحاجة إليها، أعادت إلى نفسي قوتها، وإلى طموحاتي الاستمرار، وإلى هدفي الصعب التحقيق.
مغامرة السلاحف هذه ذكرتني بالماضي القاتم الذي عشته عندما كنت أقاوم بدون سلاح، فأقاوم التيار المائي هنا أيضًا بدون أي سلاح.

بزغ الفجر، اتضحت الرؤية، عشرات السلاحف تصارع الموت على الشاطئ، وعشرات المنقذين من أهل المدينة هرعوا للنجدة بعد نداء (سميث) لهم.
فتيات، فتيان، شيوخ وشباب، يخوضون المحيط بزوارقهم يعيدون السلاحف إلى الماء بعد حملها بثقلها من الشاطئ، مهمة شاقة صعبة، يلزمها قوة العضلات وحب الوطن.

وقفت مشدوهة أمام المنظر، خجلت من نفسي وأنا مستغرقة التفكير، وعدت كي ألتقي بالأمواج مجددًا، أحاول المساعدة قدر الإمكان.

وعند عودتنا قامت والدة (تمارا) بتضميد جراحي، وإعطائي المسكّن، سألتني إن كنت بحاجة إلى طبيب، فأجبت مصِّرة بالنفي.

▪ الليلة الثانية

كانت ليلة ملائكية، صحبتني (جوى) والدة (تمارا) وهي من أصول فرنسية، إلى مكان جميل.
السماء صافية، والنجوم تتلألأ من بعيد، تضع بعض نورها على المحيط الهادئ، أخذنا موقعًا آمنًا بعيدًا عن الأشجار، خوفًا من سقوط العناكب الصغيرة السامة على رؤوسنا، محذرة إياي عدم السير تحت الأشجار الضخمة ليلاً، خاصة الأشجار التي تحاذي الشواطئ.

العناكب في أستراليا أنواع، منها غير سام ومنها الضَّار، خاصة عناكب حمراء الظهر التي يقع في شركها آلاف المصابين سنويًا. صغيرة الحجم، تكثر في الأماكن المشجرة، وتقيم أعشاشها في الأشجار، الشقوق، والجدران.

تأملنا السماء والطبيعة الخلابة، عرَّفتني على النجوم المزروعة في السماء، والتي تحتل العلم الأسترالي، بحثت عن (الميزان) فوجدته والدببة السماوية، ودعتني إلى فترة استرخاء، كانت دعوة إلى التجدد العقلي، الرقي والنزوح إلى أفكار أفضل، ثم سألتني:

- لو كنتِ رسامة، ماذا كنت سترسمين الآن؟

كان سؤالها صعبًا، لأني لم أكن رسامة أبدًا في حياتي، فمهنتي هي رسم الكلمات على طبق خالص من ذهب الصفحات.

أجبتها:

- كنت سأرسم طيورًا مختلفة في أشكال وألوان ووضعيات مختلفة مكان النجوم، أعلقها في السماء وسأعلق في منقار كلٍّ منها نجومًا تحمل أسماء أشهر العطور العصرية التي تصنع في (باريس) والتي نحن النساء نتسابق لاقتنائها، والمستخرجة من هذا الكم الهائل من الزهور المزروعة حولنا.

أرسم قاربًا محطمًا على الشاطئ البعيد، تلاطمه أمواج المحيط دون رحمة. أمزج عظمة الطبيعة، بالسكون، برهبة الكون الذي لا يموت، بالحياة العصرية، بضعفنا، بقوّتنا ورهافة حسنًا، برومانسيتنا وعدائيتنا، والتناقض الذي نحن فيه، الحرية أمام الجمال الصادق، الهدوء أمام صخب أنفسنا، الرائحة الشذية المنطلقة من الأزهار أمام صوت الدبابير والحشرات التي لا

تكف عن امتصاص الرحيق، صورة جلوسنا بقرب سيارتك الحديثة، على مقاعد نقالة، فننتقل بأجسادنا بعدئذٍ وتبقى طبقات التأمل تحاصرنا.

نبقى نتأمل السماء الخالدة، والمحيط بعملقته، وحدنا بين أحضان الطبيعة، مع أنفسنا ضد العالم، ومع العالم ضد أنفسنا، نتأمل الطيور المصفقة بأشكالها وهي تتجه تارة نحونا تبحث عن الفتات، ولا نملك سوى ملابسنا وبعض العثرات، وتارة تجانح إلى أعلى، ثم إلى القارب المحطم البعيد، نحسها جائعة، نطير بأعيننا نحوها إشفاقًا وربما حسدًا، نحزن لعدم إتقاننا الطيران مثلها، مهما طرنا، نكتفي بالمركبات العصرية التي لا توصلنا سوى إلى حوانيت العطور، هذا ما أحس به أنا الآن.

واسترسلت في دواخلي:

- أشعر أني طائرٌ محلّقٌ حرٌّ يحيا دون قيود، لكني ما زلت ملتزمة للماضي، وأن السماء واحدة لو بعدت خطواتي إلى أقصى الممنوع، وأرض السلام باقية، في مكان آخر، والمستقبل الزاهر بين أناملي، وما أزال مقيده. لا صوت رصاص، لا رائحة دخان، لا طائرات تقصف، لا دماء، لا قيود، لا كره، ولا رائحة موت....

ومنعتُ الدموع من مباغتتي.

أقامت (جوى) حفلاً بعد مدة، دعتني إليه، احتفلت بلوحتها الفائزة والتي أسمتها (اللوحة الخالدة)، تناص عالٍ للأسماء، فـ(اللوحة الخالدة) اسم إحدى مجموعاتي القصصية.

▪ اليوم الثالث

كانت الاستعدادات على أشدها، اقترح عليّ (سميث) عدم مرافقته، فرفضت معللة الأسباب لنفسي، إن لم أغامر هنا، الآن وأنكشف على الطبيعة، فسأظل (بيتوتية) إلى الأبد، بمعنى امرأة مغلقة لا تبارح البيت... فغامرت.

عادت الغيوم لتسقط مطرها الغزير من جديد، فكان موسم العواصف (ستورم سيزين)؛ هكذا يسمونه الأستراليون، أو موسم البلل (ويت سيزين).

دخلنا الغابة ليلاً مع بعض الرجال المختصين بالمحافظة على البيئة، مشينا بين الأشجار العالية في ممرات ترابية ضيقة، حتى وصلنا انحدار شلال. مهمة اليوم هي البحث عن كلب ضائع وتفقد المكان.

نزلنا في عمق وادٍ سحيق، كادت المياه تجرفنا. كانت المغامرة أشبه بفيلم (كاوبوي) رأيته في طفولتي.

الرفقة البشوشة تضيء بعض الأماكن مقتفية أثر الكلب الضائع وعيون الكلاب البرية حولنا، شبيهة الثعالب تشتعل نارًا، تحيطنا وتراقبنا من بعيد. كنتُ أرتجف رعبًا، أفكر فيها وبعناكب الليل، وبالحشرات والبعوض، وَ...وَ...وَ.
سيمفونية الحشرات التي لا تنتهي تصم أذني.

تدفقت المياه دون توقف من الجبال. خرجنا من منحدر لندخل آخر، بدأت أعد خطوي نحو الأسفل والظلام الدامس يؤسس داخلي خوفًا لم أعهده من قبل، اقتفيتُ وإياهم صوت المياه النازل بقوّة، فكانت دليلنا الأول نحو السبيل الذي بدأ يضيق...

عشرون سُلمة، ثلاثون، الواحد والثلاثون... انهارت إحدى الشجرات أمامنا فقام الرجال بدفعها، قصّها وتقليم جوانبها كي يخلو الطريق للمتجولين من بعدنا، كتبوا إعلانًا بجانبها: (احذر الانهيارات)... ومضينا.

تمنيتُ لو كانت الرحلة نهارًا لأمكنني رؤية المزيد عدا الظلام الدامس، بدا لي المكان سياحيًا من الدرجة الأولى، فصيانة الممرات ليلا يدلُّ على توافد السياح بكثرة إليه.

خرجنا من الغابة أخيرًا، كان الفجر قد شقَّ بعض نوره بين السحب المتثاقلة. منظر رهيب عظيم، وكأن عالمًا جديدًا يشق طريقه إلينا من السماء!

حتى الأرانب البرية أخذها المنظر فوقفت على أطرافها الخلفية تنتظر مجيء الجديد، لا تحرك ساكنًا أمام بزوغ الشمس التي بدت غير متكاسلة، والتي رمت أشعتها على طرف الطريق الذي امتلأ بجثث البط البري، جثة هنا وجثة هناك؛ ضحية السيارات المخترقة إلى المدينة ليلاً، ونتيجة صراعها مع كلاب الليل المفترسة.

ـ لنا مهمة أخرى.

قال أحدهم.

وبدأنا نلملم الجثث من الطريق، ما تزال ساخنة، لنضعها في أكياس سوداء، ومن ثم إلى موءدة خاصة للحرق.

أمضي معهم حاملة قلبي بكف يدي، أحاول لملمة شتات أفكاري، وأعود بي من مرض أكيد ألمَّ بي، وهو مرض الانتقاد، فقد أصبحت امرأة الانتقاد بالفعل، بل امرأة التذمر، بل سأسمي نفسي امرأة التهكم، لأني سأتذمر على إنسانيتنا (العالية جدًا)! ومهارة البعض في دفع الآخرين إلى الدفن وهم أحياء، أنتقد جوع بعضنا إلى الحقد والكراهية، لماذا لا يُحترم الإنسان في بعض بلداننا؟.. لا أريد أن أقول احترام النبات، الطير والحيوان! لماذا خلقت كي أعي وألاحظ الأشياء الكبيرة منها والصغيرة، يا لهذا الوعي الذي يعذبني ويدعني أحيانًا الوصول إلى حدود الجنون وأعود بي، يا لهذا النقد الصريح الذي أمليه، ولمن؟ لشعوب لا تفقه سوى لغة الحروب والموت!

▪ الليلة الـرابعـة

أمضيتها في السرير، حمى مفاجئـة أصابتني، من جراء قرص البعوض الذي يعيش في الغابات الماطرة، حتى المطر عاجز عنها. أصيب جلدي بدوائر حمراء، بدا خطيرًا، مشكّلا التهابًا جلديًا وإحساسا لا يمكن لجمه، الحك، والحك، ثم الحك. لا ينام جسدي حتى أحكه، كي أعرفه، وإذا حككت إصبعي فلهذا معنى آخر، أنه يحمل سلاح الثواني في لغز الكلمات، زمن الوحدة التي ستتفتح في رماد الوقت حتى تتجلى لحظة النهار... وقعت ذكرى (المعري) في نفسي عندما قال:

- (للعظيم قلبان، قلب يتألم وقلب يتأمل)!

الأصابع لها مساحتها وإلا لما تركت البصمات، لا تتخلف إلا بعد أن تترك المزيد.

انطلقت به (أي إصبعي) إلى المزيد، كنت مصغية إلى الوجود، لم أجد نفسي فيه، دوّنت بلا حدود، ضجيج قلبي وصرير القلم يتفقان، يكون الضجيج أحيانًا نوعا من الصمت، والصمت أحيانًا يكون نوعا من الضجيج. راهنت على دواخلي الجبانة، فمنطقة الخوف، روضت الوقت والزمان الذي غادر، لبدايتي المخيفة في مكان المستحيل ولنهاية ما تزال مجهولة... ولم أسترح حتى دمّي جلدي.

ـ هذه مشكلة النساء الغضة أمثالك، كلهن مقروصات.
قال (سميث).

ولاحظت بالفعل أن الجميع يعاني من تشوه وإحمرار في الجلد من جراء القرص، نساءً ورجالاً، لكن في فترة الصيف فقط. وجلب لي مسحوقًا خاصًا دهنت منه المكان الملوث.

قام (سميث) بغرز إبرة تطعيم بذراعي، وعلمت حينها انه امتهن الطب سابقا، إنه أحد المغامرين الذين حققوا طموحاتهم، وعندما بلغ السبعين قرَّر مزاولة مهنة يعشقها... الطبيعة... أجمل مهنة... حسب ادعائه... وأنا أصدقه!

▪ الليلة الخامسة

قررت المكوث في البيت، بل فضّلت أن أخلد لبعض الراحة، فابنة الشرق المدللة لم تستطع تحمل جزء بسيط مما يتحمله سكان المنطقة يوميًا، وربما أردتُ الاختلاء إلى نفسي.

كتبتُ حتى الصباح، هدرتْ الأمواج بقسوة، تخيلتها تصل حتى الشرفة، أقلقني البحر الهائج كما أقلقني كل هذا السواد الممتد حتى إلى ما لا نهاية، وعندما داهمني شعورٌ بالضياع، تذكرت يوم رحيلي، والذكرى لا تموت، كان الغروب حائلاً حقيقيًا أمام البقاء في الوطن.

أحسست بقلق لا أعرف له سببًا، وخوفٍ من كل الأشياء، وليس من أي شيء، حسبت حساب خطواتي القادمة، واسترجعت مسالك خطواتي السابقة.

دخلت الحمام لأغسل أسناني قبل النوم، صعقت لمنظر أوقف الدم في عروقي، منظر غريب رأيته، وأتمنى ألا أراه بعد...
عنكبوت كبير بحجم البدر، يلوذ إلى قطرات الماء داخل قبعة الحمام خاصتي، المعلقة على الجدار، القبعة البيضاء تحمل داخلها عنكبوتًا أسود لا أدري من أين وصل إليها، ولم أدرِ كيف أصدِّر خوفي. لم يكن الصراخ ملاذي، ولا التأمل يصح للموقف، ولا التأجيل.

رحت وجئت بخطواتي المترددة، لملمت أفكاري في كيفية التخلص منه دون الاستعانة بأحد.
لن أطرق باب حجرة (جوى) النائمة، ولن أقفل إلى سريري وهو موجودٌ معي. وضع حرج تمامًا، حتى حذائي لن يتمكن منه لحجمه، وإن، هل أستطيع أن أكيل الضربات وأن أسحق أكبر عنكبوت عهدته هنا؟
لكن، والحمد لله، وقعت عيني أخيرًا على مسحوق خاص، مبيد فتّاك تُرك على الحافة للحظات الطوارئ.

وعند حلول الفجر ركضت إلى النافذة، بحثت عن نور المنارة من بعيد، بحثي طال، لكنه موجود، اشتدت الرياح، نذرت

لعاصفة قادمة، وأنا أراقب ضوء المصباح الخافت الخارج من الغابة من بعيد، علمت حينها أن (سميث) بخير.

عدت إلى سريري، تخلصت من الأرق والتردد وقررت المضي في مسعاي.
(الحياة إما أن تكون مغامرة جريئة أو لا شيء)
أصدقك تمامًا "هيلين كيلر".

▪ الليلة السادسة

اقترحتْ عليَّ (جوى) المكوث في البيت، كي أستقبل ضيوفًا غير عاديين معها، موسيقيين أتوا كي يستعدوا لحفل سيقام في الأوبرا بـ(سيدني)، وتبرعتْ لهم بالمكان.
عرّفتني على عازف البيانو بعد أن سمعنا أشجى المعزوفات.
اقترحتُ عليه فيما بعد صوتًا عربيًا ملائكيًا كي يسمعه، أسرعت إلى حقيبتي ثم عدت فوضعت (فيروز) قيد يده، سمعها الحاضرون بصمت مهيب:
-" يا قدس.. يا مدينة الصلاة أصلي..عيوننا إليكِ ترحل كل يوم."

أرجعتني السيدة فيروز إلى حارات مدينتي، كنائسها وجوامعها، إلى أزقتها وبلاطها القديم المرصوف بكل تواضع، إلى منافذها

وزقاقاتها، إلى جدرانها ومعابدها، إلى رائحة البخور، إلى المسابح والعباءات المطرزة المعلقة على جدران السوق الشعبي، إلى بواباتها السبع، إلى سورها وحجارتها القديمة، إلى ناسها الطيبين، والى أحلامهم الموزعة بالشخوص غرب العالم وشرقه، والى أحلام بعضهم المؤجلة، والى الأحلام المجهضة، وأحلام تأبى الموت، والأحلام التي ماتت فعلاً.

خشع الحاضرون أمام صوتها الملائكي دون أن يفهموا الكلام، وبعد أن ترجمت لهم ما كان، قال العازف بكل تواضع:
- فتاتك تستحق أن تكون في الأوبرا، وليس أنا فقط.

- أجبته :كانت، وأنتَ تستحق أيضًا أن تكون، لأنك أولاً مبدع، وثانيًا إنسان متواضع، تواضعك أوصلك إلى (الأوبرا هاوس).
ولم أعلم حينها أني قضيت سهرة ممتعة مع أشهر عازف بيانو أسترالي!

عدت إلى سريري بعد ليلة سعيدة أمضيتها بحضرة الموسيقى، أتابع ما يخطه قلمي في هدوء وسكينة وأنا تحت اللحاف.. بدأ البرد يتسرب رويدًا رويدا. كانت ليلة هادئة خالية من الهموم، ليلة بحث مستمر عن السعادة والتخطيط المستمر لها، الاسترخاء ومزاولة الجمال بكل حيثياته...
تلك هي الحياة التي يتمتع بها الأستراليون.

▪ الليلة السابعة

سرت و(سميث) في الغابة والضوء قيد يده يسبقنا، سألته عن مهمة الليلة.. وبعد محادثة قصيرة علّل تعلقه بحياة البيئة بأن عالم الليل بطيوره، حيواناته، زواحفه وحشراته هو العظمة برمتها.

هطلت بعض الأمطار، لم يهمني الأمر، فقد اعتدت على ذلك، وبعدها اكتظت الغيوم فجأة لتغلق باب السماء علينا.

عدنا أدراجنا، نزلنا من السفوح الباردة نسبيًا، داهمتنا الأمطار المفاجئة بغزارة، فصنعت في الأرض نوعًا من المستنقعات الصغيرة.

أصبح طريقنا ضيقًا، تغيَّرت الأحوال الجوية فأمطرت ملابسنا رطوبة وعرقا.

أصبح الحرُّ شديدًا، غادرتنا نسمة الهواء الباردة ليغمرنا عوضًا هواءً ساخنًا لفح وجنتينا. مشينا في فسحة واسعة خالية من الأشجار، وأصوات الحشرات ونقيق الضفادع يملأ المكان.

جعلني (سميث) أخطو خلفه، واضعةً خطواتي فوق خطواته، مشددًا الالتزام، لم أفهم قصده، وطلب مني ضبط أنفاسي والتنفس ببطء، لأن صوت أنفاسي يمكنه تهييج الثعابين الحساسة لكل صوت.

ـ ثعابين؟

صرخت في أعماقي، وعدت بذاكرتي عندما كنت شابة، حيث لسعني ثعبانٌ ألزمني المكوث في المشفى لعدة أيام. خجلت من خوفي، أمسكت بذراعه وأنا أرتعد، وكأني أتوسله إرجاعي إلى البيت، لكني لم أفعل، ولو أنه قرأ أفكاري ولم يفعل!

شدّد عليَّ التدقيق بالنظر من خلال العتمة قائلا:

ـ سترين منظرًا مستحيلاً.

أضاء المكان بالمصباح كي أرى الثعابين وهي تخرج من المستنقع برؤوسها، تلتقط الضفادع الخضراء بسرعة فائقة، واحدة تلو الأخرى، تختفي في الماء لتعود مجددًا برأسها كي تلتقط قوت يومها.

بينما كانت الضفادع تنتظر سقوط الفراشات كي تلتهمها، والحشرات الليلية تحوم حول ضوء العمود المنتصب هناك، باستدارة رتيبة عجيبة. الضوء يكشف شبكات العناكب المتربصة لها وللبعوض أيضًا، والقنافذ بين الأعشاب تغلق على نفسها حتى موعد لقائها مع الحيات التي لا تستطيع مقاومتها.

عدنا فجرًا وصوت (الطائر الغريب) هكذا أسميته، قلقًا، محتارًا، وربما كان منهمكًا، يصيح باستمرار، مدة عشر دقائق.. تربصتُ لدقائق ظهوره، حصيتها، كما في كل فجر. يستدعي الطيور فيوقظها من مضاجعها، ينادي بإصرار وبأعلى صوته، وعندما

تتجمع الطيور حوله وتمتلئ الأشجار بها، تنتهي مهمته، ولا يظهر مجددًا إلا في فجر آخر عندما تتجمع حوله الطيور بجميع أشكالها مرَّة أخر،ى فيبدؤون النهار بجوقة خاصة، لا يفهمها إلا هم.

▪ الليلة الثامنة

أحببتُ المكان، وبدأت الأفكار تتخبط داخل رأسي تطلب التدوين، لكني اكتفيتُ ببعض الملاحظات الهامة، كي أستثمر ما تبقى لي من الوقت لاكتشاف المزيد.

كانت رحلتنا في تلك الليلة بحرية، علّمني (سميث) كيفية استعمال صنارة الصيد معللاً ذلك نجاحي في المهمة، أدهشني رأيه.

ـ وكيف لكَ أن تعلم؟ سألته.

ـ ألستِ روائية؟، من يكتب الروايات يا عزيزتي يتمتع بسعة صدر، صبر طويل وطول بال، أجاب.

رميت الصنارة في الماء، فقال وهو يفرك كفًا بكف:

ـ سنأكل اليوم الأسماك الطازجة جدًا، أنا متأكد.

تذكرت موقفًا دونته في قصة قصيرة قديمة أسميتها (هل انجزر البحر وانسحب) عندما كنت في جزيرة قبرص، ها أنا ذا الآن آخذ دور الرجل المسن الذي لم يستطع الصيد، لكني أبقيت الصنارة في البحر.

مرَّ المركب فوق مياه هادئة، لم نستطع الاصطياد، ولجنا، سحبنا الموج الهائل إلى الداخل وسرعان أن بدأ يتمايل فوق أمواج سوداء أخذت تعلو، بدا البحر موحشًا.

عن أي أسماك يتحدث (سميث) والمحيط يحيطنا بأمواجه، صرخت بصمت، وأردفت ألعن ساعة مجيئي ومكوثي في هذا المكان الخطير.

ذكرتني تلك الحادثة بحادثة مشابهة عندما كنت أقضي عطلة الصيف في جزيرة (كريت) اليونانية، امتطيت البحر إلى مدينة (هرقل) فأصبت بدواره، على أثر هيجانه المفاجيء.

تمنيت ألا أصاب به مجددا، (فهرقليون) ليس هنا، ولا أثر لجميع هؤلاء العظماء القدامى، الذين أصروا البقاء في الطرف الآخر البعيد جدًا.

وأردف أيضًا:

- لم تري الحيتان بعد؟

- حيتان؟... صرخت مجددًا ولم تسمعني سوى نفسي الخائفة.

ـ إذن استعدي لجولة الغد، سأريك أضخم الحيطان، قال.
ـ حيتان، هنا، الآن...

لم أصدّق نفسي، ربما قرأ الخوف في عينيّ، اكتفينا بثلاث سمكات وعدنا، معللا ذلك:
ـ بهذا العمر يجب الاكتفاء بالقليل ...

ما أروعك يا (سميث)...

وفي الصباح الباكر استيقظت على صوته وهو يحضِّر لنزهة اليوم، السمكات الثلاث بعد أن قام بتنظيفها وتمليحها، سلطة خضراء، بعض الخبز، وطعام للطيور.

حملتْ (جوى) الناظور كي يتسنى لنا رؤية الحيتان بشكل واضح، أمكننا رؤيتها بدونه لقربها من الشاطئ الذي تحتله المنارة الجميلة التي انتصبت أعلى القمّة.

يا له من منظر نادر أخاذ، لم أعرف كيف أوزّع ناظري بين الحيتان المتراقصة أزواجًا في المحيط، ومياهه الصافية، تأمل التصاميم الأخاذة للمنارة البيضاء، خلوة المكان وعظمة الطبيعة.

مشينا في ممر خاص، نحو المرتفعات الملتوية. كان الممر ترابيًا طويلاً تتخلله بعض السلالم، وعند كل منعطف أقيمت محطات استراحة ومقاعد خشبية على طول الشاطئ، تخيّلت

خطوي وكأني أخطو (سور الصين العظيم) لكن بدون كل هذه الزرقة.

إن كان سور الصين العظيم أول أسباب دهشتي المخاذلة، وإذا قلت إني غصت في متاهات الصين وساحات الأفق، وإن نزحت كثيرًا التفكير في عملقة ما خلقه الله، متخذة هذه المحطات الجميلة التي تناديني إلى عناق الحيتان، وهي تسرح لها على حريتها في أكبر المحيطات.

لم يكن هناك سوى صوتٍ واحدٍ يعزف على أوتار شراييني المتقطعة، يترك لحنه في أفق لا يردّ الجواب، أظن أن كونيتي العالية كانت أقدم من الرؤية، هي التي تتكلم دائمًا، ولن تسكت والطفل في بلادي الذي ما يزال يطفئ النار ببرد حدقاته، صارخًا: أنا ابن لا الإنجاب الأبدي، خرجت مرة واحدة من قميصي، وما زلت أدفع ضرائبه...

▪ الليلة التاسعة

نمت في الليلة التاسعة نومًا عميقًا، لم أستيقظ سوى على غارة (عصافيرية) هائلة غزت السماء، إلحاح ومشادات صوتية طاردتني حتى عمق فضولي، أخذتني من سباتي لتحط بي إلى

الأفق المظلم البعيد. أغلقتْ وجه السماء، مرَّتْ فوق الشرفة، تتبعتُها بعيني الباحثة من خلال الفجر ففقدتُ أثرها، كانت زقزقتها مرعبة دبَّت الرهبة في نفسي.

وقفتُ أراقبها من بعيد، كم كان جميلاً سلوكها، تملك انتماء البقاء، تصارع المناخ الذي ليس له ثبات، تظل نشيطة تحيِّر عقل الواعي، وتغذي نفسها بطريقة تفوق ذكاء الدارسين.

اقترحتْ عليَّ (جوى) الصعود حيث المنارة مشيًا على الأقدام مجددًا، كرياضة صباحية هامة، اعتمدها المسنون المقيمون في المنطقة، معللة:

ـ مرة واحدة لا تكفي، هي بضع كيلومترات فحسب.

احتفل أهل المدينة فجرًا وأجسادهم المترهلة الواهنة تتسابق حيث قدمت الحيتان الزائرة، مجموعة جديدة أخرى غزت الساحل خلال أيام معدودات.

صعدنا من طريق آخر، ومن ثم صعودًا إلى مرتفع آخر في الجانب الغربي لشبه الجزيرة نتأمل تراقصها من بعيد.

انجذبتُ للطريق الملتوي الخشبي الضيق، والغابات بأشجارها المحيطة بنا، حتى وصلنا القمة.

دهشت لإصرار المسنين عدم مفارقة الحياة، جيوشًا متحركة ببطء تخترق المسافات نحو القمة، تنقطع أنفاسها وهي تتسلق

وجهــة المحــيط، والبــسمة بتجاعيــدها تخــيِّم علــى وجــوههم البشوشة، سألت نفسي: عن ماذا يبحثون وهم يقاتلون للوصول ببنــاطيلهم القــصيرة وأحــذيتهم الرياضــية، مــاذا يبغــون وهــم يتـسابقون فـي الطـرق الملتويـة الـضيقة؟... ربمـا يبحثـون فـي الطرف المجهول الآخر عن عالمهم الأخير!

أُكتشف المكان مجددًا سنة ١٩٧٠ على يد أحد راكبي الأمـواج، ومن بعدها رُمِّـم وأُهِّل ليكـون محفلاً سياحيًا، لراكبي الأمـواج، والسياح.

▪ الليلة العـاشرة

طلبتُ من (سميث) زيارة مستنقع الثعابين مرة أخرى كـي ألـتقط بعض الصور، أجابني بالنفي ولم أعلم لماذا لم يحقق لي رغبتي. سرنـا حوالي الكيلومترين وأزيز الحشرات يعبئ فراغات صمتنـا.

ـ ها قد وصلنـا، استريحي... قال.

ـ يمكنكِ الجلوس على الأرض، لا تخافي وتنفسي عميقًا، سأريكِ منظرًا نـادرًا!

ـ كل بلادكم نـادرة... قلت.

خنافس بأحجامها الكبيرة، حجم كل واحدة حوالي ٥ سنتمترات، تقع أرضًا على ظهورها، وكانت مهمتنا مساعدتها، وإعادتها على بطونها.
كنا نتسابق معًا في قلبها فتصلنا من حيث لا نعلم عشرات أخرى مقلوبة.

- لماذا يجب أن نقلبها؟ ... سألت.

- سيجيبك طائر الليل على سؤالك، لكن بعد أن نخلي له مكانًا.

انزوينا في العتمة، وبدأنا نراقب نزول طائر الليل من مخبئه، مخيفًا، له منقار حاد، انقض على الخنافس المطروحة على ظهرها، ضربها في القلب، أفرغ أحشاءها في منقاره، ترك أطرافها وأجنحتها وعاد أدراجه... وبعد لحظات، يعود فيراقبها من بعيد، يهبط؛ فيجهز عليها من جديد.

قمتُ بحراسة الخنافس طوال الليل؛ وكأني وظّفت من أجلها، تناولتُ أمرها بعمق وأهمية، ويبدو أني أسقطتُ إنسانيتي داخلها. إحساسي بكونيتها دعاني للانهماك بقلبها حتى تشعر هي بالحياة مجددًا، اقتحمتُ الليل بعملي متسائلة عن أسباب وقوعها، ولم تنطق البيئة وأحكامها بأي جواب.
أدركت أنه إن لم أهتم بقلب هذه المخلوقات المسالمة؛ ستموت حتمًا، لأنها أبدًا لن تستطيع العودة إلى وضعيتها السليمة دون مساعدة الآخرين.

وأعود (للمعري) مرة أخرى:

- "سأل الممكن المستحيل أين تقيم؟

فأجاب المستحيل: في أحلام العاجز".

أحسستُ نفسي عاجزة أمام تعدادها وقوّة الطبيعة، سنّة الحياة، والبيئة التي لا يمكن أن تروَّض على أهوائنا نحن أبدًا.

أكملنا ليلتنا أنا و(جيمس) نراقب حيوان (البوسوم) شبيه الفأر البري، حجمه كبير وشبيه السنجاب أيضًا، كانت تمتطي أسلاك الكهرباء جيئةً وإيابًا. تجوب المنطقة بأكملها واحدة تلو الأخرى، تحتمي وترتاح بين أغصان الشجر عند انتهاء كل وصلة، بين العمود والآخر.

العائلة تتجول معًا ليلاً.. وكم كان منظر الأمومة رائعًا، عندما كانت تقفز من سلك إلى آخر وطفلها على ظهرها. تجوب المنطقة بكل حرية وأمان، وعند الفجر تختفي جميعها كليًا عن الأنظار.

• • •

انتهت رحلتي...

وقفنا أنا و(تمارا) على مفترق طرق لدى عودتنا، ولائحتان لوجهتين معاكستين. (بريزبن) أو (سيدني) سألتني (تمارا).

(لنعد إلى بريزبن)... قلت بدون تردد.

قطار سريع
من بريزبن إلى سيدني

"قصيدة الهروب :
ترفِلُ الظلال وشَمًا
على جسدِ المسافة
يغربِلُ الصمتُ
زادًا للسفرِ
ليس ريحًا
أو سرابًا
بل لهاثُ العابرين"

أنطوان قزي
كاتب وصحافي لبناني مقيم في أستراليا

استلمت مقعدي بالاسم والرقم ٦٤، لم تكن هناك مقطورة مجهزة بسرير، هو مقعد فقط، وطاولة صغيرة لتناول الطعام ملتصقة بالمقعد الأمامي.

رحلَّ بنا القطار ورحلت معه بأفكاري إلى البعيد، إلى آخر مرَّة زرت فيها القاهرة ومصر العليا في قطار مشابه، لكن بمقصورة وسرير.

عبرَ القطار جسرًا ما، حيث ظهر نهر بريزبن من تحته صافيًا جميلاً، ثم أخذ مساره بين الحقول الخضراء الغنية، وبين الحين والحين مرَّ في أماكن احتفظت بنصف اسمها، (جريك جيمس روس)، (وادي...) (جريك آلان سنو)، (جريك هوريستون)، (جريك الخ)، فما كان ذلك إلا أسماء مزارع للثروة الحيوانية التي تأسست قرب وديان أو أنهار صغيرة.

قطعان كثيرة من الأبقار تتمطى في حدائقها الغناء، تتجوَّل فيها بحرية وهدوء، مرتفعات وجبال مكسوة جميعها بالخضرة، جميلة تحاكي الغيوم السوداء تارةً والسماء الصافية تارة أخرى، ومنظر الضباب الذي تمركز في المنحدرات والقمم.

مرَّت أمامي لوحات ملوَّنة جميلة، لا يمكن لأي رسام مبدع وضعها في لوحة.
ومرّت في ذهني أيضًا صورة الفلاحات المصريات وهن يغسلن الثياب في الترع، يسقين الماشية، ويغتسلن من مائها.

بحثت عن أي شخص، لم أجد سوى معدات الفِلاحة والزراعة الحضارية، لم يكن هناك حمار ومحراث! أين هم الفلاحون وزارعو الأرز، أين هي السواقي، أين هم الفقراء الطيبون، والمتمركزون داخل الماء يخوضونه بمساوئه، لم يكن هناك وجه شبه بمصر، لا للماضي هنا، فحسب المستقبل وحياة الرفاهية، الحيوانات المرفهة والإنسان النشيط .

مـرَّت أمـامي حقـولٌ لــ(الخيـول)، (حيـوان اللامـا) (والكنـاغر)، غابات (الكوالا) والمزارع الممتدة على طول النظر.

أسـدل الليـل سـدوله، فتلـون الأفـق بالـسواد، افتـرش بعـضهم الأرض ونـاموا نومًـا هنيئًـا، إلا أنـا، بقيـت أبحـث فـي وجـوه لا أعرفها متعبة عن أجوبة لأسئلتي.

لـم يمـر بـذهني أن أسـتراليا بكـل عظمتـها تفتقـر للتـاريخ القـديم، أردت أن أسأل بعض النساء في المقعد المقابل من (الأوبرجينز) ماذا فعل أجدادك، أين أستطيع أن أرى آثارهم، أين هي أهرامات الجيـزة، المعابـد، الكرنـك، حتشبـسوت، وادي الملـوك، وادي سقارة والكثير الكثير مما تركه الفراعنة... أين هـي آثـاركم! بمـا أني تخيَّلت نفسي في مصر الفراعنة.

توقف القطـار فـي مواقـف عديـدة، لخمـس دقـائق وربمـا لدقيقـة واحدة، كي يتيح أيضًا التدخين للمـدخنين. حتـى ظهـر الفجـر مـن بين قمـم المرتفعات المكسوة بالأخضر الجميل دائمًـا لـيحط فـي ولايــة (نيـو سـاوث ويلـز)، مختـرقـا جـسورا، أنهـارًا، مـزارعَ ووديانًـا، حتـى وصـل الـساعة الـسابعة صباحًا بالدقيقـة محطـة (السنترال) في سيدني.

تعرفتُ على (أمل)، وكل الذي كنت أخشاه هو عدم التعرف على قريبتي التي لم أرها منذ أكثر من ١٥ سنة.

وبدأت مسيرة جديدة، رحلة اكتشاف الجديد في مدينة عملاقة كبيرة جميلة مكتظة، لا تشبه مدينة (بريزبن).

الولايات في أستراليا

تقسم الولايات في أستراليا إلى ستة ولايات:

١. ولاية (نيو ساوث ويلز) :
وعاصمتها (سيدني).. تعتبر ولاية الفن والأوبرا، كثيرة المتاحف، فيها مدينة رياضية (أولومبية)، وتمتاز بجبالها الزرقاء الجميلة.

٢. ولاية (كوينز لاند) :
أرض أو جزر الملكات، وعاصمتها (بريزبن)، ساحلها واسع جميل، مقوَّس، تعيش فيها الحيوانات البحرية النادرة والعجيبة.

٣. ولاية أستراليا الجنوبية:
عاصمتها (ادلايد).. تمتاز بكثافة الغابات والحيوانات المفترسة.

٤. ولاية تسمانيا:
عاصمتها (هوبارت).. وهي أصغر الولايات، جزيرة، تعتبر الجنة المصغرة على الأرض، تضاريسها جبلية، بها مرتفعات ومنخفضات، وملحقاتها بعض الجزر الصغيرة الجميلة.

٥. ولاية فكتوريا :

وعاصمتها (ملبورن).. تقع فيها عاصمة القارة (كانبرا)، كانت أول موطئ قدم المكتشفين الجدد، كثيفة بالغابات وبها مناطق صخرية.

٦. أستراليا الغربية (ويسترين أوستراليا) :

أكبر الولايات، وعاصمتها (بيرث).. تمتاز بطبيعة خلابة، تحتفظ بأصالتها، مصدر الكم الهائل لأنواع الطيور، ويعيش فيها نسبة كبيرة من الحيوانات البرية.



"أنْ أقتلَ نفسي
خيرٌ منْ أنْ أقتلَ غيري
فلأبدأ .. وليبدأ غيري"

خالد الحلي
شاعر عراقي مقيم في أستراليا

كان الاحتفاء بي في مدينة سيدني غير عادي، مدينة النصف مليون عربي، تعج الشوارع بالناس كما السماء تدرع بآلاف النجوم والبحر يدرع بآلاف الأصداف.

كانت السماء صافية عندما استقبلني الأهل والأحباء في قاعة كبيرة أعدتها الجالية العربية لتكون ناديا ثقافيا وقاعة أفراح.

الحياة في سيدني مغايرة، والناس مختلفون، حافظ العرب على تقاليدهم ولغتهم وآرائهم، شعرت من خلال لقاءاتي معهم أنهم ما يزالون يعيشون في عصر الخير، المحبة، الجمال والألفة.

تفاجأت بعائلتي الكبيرة، التي هاجرت قبل أكثر من ثلاثين سنة من لبنان، بعد مغادرة الأردن وقبلها فلسطين.
نشطت الصحافة هناك، المكتبات تعج بالكتب العربية، لكن ليس على المستوى الكافي، لا شيء يشبه وطن الأم من ناحية الثقافة والكِتاب... لا شيء...

تقع سيدني على خليج مائي ممتد من محيط الباسيفيك. بها أكبر ميناء طبيعي في العالم (ميناء جاكسون) .أوّل مستوطن أوروبي وصلها كان سنة ١٧٨٨م، من بعده أقيمت عدة مستوطنات لتشكل مدينة سُميِّت بـ(سيدني) في القرن التاسع عشر. وأول الجاليات العربية التي وصلتها الجالية اللبنانية التي تشكل حوالي ٤٠٠ألف نسمة.

▪ جسر هاربر

مررت على جسر هاربر وأنا أستذكر بعض الجسور في سان فرانسيسكو الأمريكية، لكن (هاربر) لا يشبه (الغولدن جيت) ولا (بيي بريدج)، وسيدني تشبه (لوس أنجلوس) ربما ببناياتها العملاقة فقط وأنوارها المتلألئة.

بدأت فكرة بناء جسر فوق ميناء (هاربر) سنة ١٨١٠ لكن لم ينفذ العمل فيه إلا في سنة ١٩٢٦، استمر العمل حوالي ثماني سنوات، وقعت أثناء بنائه خسارات بشرية وأخطاء.

احتاج بناؤه إلى ٩٥٠٠٠ متر مكعب من الكونكريت، و٦ ملايين مسمار، كان أطولها ٣٥٩ ملم والأكثر وزنا ٣,٥ كغم.

يمتد الجسر بمساحة ١١٤٩ مترًا وعرضه ٤٠ مترًا، وأعلى نقطة فيه ترتفع ١٣٢ مترًا فوق سطح البحر، والوزن الكلي للفولاذ الذي استعمل ٥٢٨٠٠ طن.

▪ زيارة مريم

أصرَّت (أمل) ابنة خالتي تعريفي على صديقة وفية شاعرة عملت سابقًا في الصحافة.

هاجرت (مريم) من فلسطين في أواخر السبعينات، تقيم في منطقة (كرونولا) تبعد عن سيدني حوالي ٦٠كم، قائلة:
- حتمًا سيعجبك المكان.

نزلتُ في بيتها عدة أيام، كان أشبه بأن يكون متحفًا للوحات زيتية رسمتها بنفسها، ومقرًا للطيور، تحيطه حديقة زرعت فيها أنواع شتى من النباتات والزهور التي تزرع في الوطن، زيتون، زعتر، مرامية، نعناع، ملوخية، بامية، عكوب، فم السمكة، القدسي، السندس، الخ.

استطاعت (مريم) أن تخلق لها وطنًا بديلاً في الغربة، سألتني عن أحوال الأهل والجيران، الإعلام، والصحافة، وكل الذين لهم صلة بالأدب والأدباء، احترفتْ الكتابة في الماضي، ولما وصلت احترقت دواخلها لعدم وجود التسهيلات اللازمة للاستمرارية شاكية متذمرة:
- هل تصدقين، في كل سيدني لا يوجد مقهى لإنترنت باللغة العربية!

ملأتْ الحجرات بتحف وميداليات قديمة جلبتها معها عندما زارت القدس قبل مدة طويلة، وصور إخوتها ووالدتها التي توفيت قبل وصولي بأسابيع قليلة.

رحبت بي أجمل ترحاب، وقبل خروجنا للتجوال كانت حريصة بوضع بعض الفتات للببغاوات في صحن ملوَّن جميل معللة ذلك بأن الطيور تعشق الألوان.

تجولنا في المنطقة التي امتازت بروعتها وهدوئها، وصلنا إلى مكان موحش. قالت:

- آسف لهذا المنظر، جميع هذه المنطقة تعرضت لحريق استمر عدة شهور بسبب الرياح.

قرأنا وتناقشنا، تناولنا مواضيعَ شتى لا تكفي أيام مكوثي عندها. شككت أن تكون شبيهة (سميث) محبة للطبيعة والبيئة حد الجنون، فعمريهما متقاربان، لكنها كانت متطوعة وناشطة في جمعية مكافحة الأمراض السرطانية. وهناك إحصائية تقول أن أكثر نسبة للمصابين بسرطان الجلد متواجدون في أستراليا.

وكانت تحرص أيضًا على إطعام قطتها التي تشاطرها وحدتها.

- هل تشعرين بالوحدة؟ سألتني.

- نعم، منذ أن غادرت الوطن، قلت.

غادرتها بعد أيام وهي تسكب دموعها على وجهي مودِّعة، وأنا بدوري كنت ألجم دموعي وأتمنى في قرارة نفسي ألا أصبح مثلها وحيدة هنا وألا يتبق لي سوى الذكريات.

وكان لقائي الثاني الجميل مع زميلتي الدكتورة نجمه حبيب، والتي غادرت لبنان إلى سيدني قبل أكثر من عشرين عام، أمضتها بين التأرخة والكتابة.

ولقائي الثالث كان مع الدكتور باقر الموسوي، زميلي في مهنة الترجمة، وزوجه الجميلة، قمنا معًا بزيارة المتاحف ودور الثقافة، مارِّين بمنطقة (بانك ستوان) والتي يتمركز فيها أكبر عدد من العرب، وتناولنا طعام الغذاء في مطعم تركي طعامه شهيّ في منطقة (اوبن).

ولقائي الرابع كان مع الزملاء في صحيفة (التلغراف) أنطوان قزي، هاني الترك وغيرهم.

وتتابعت اللقاءات مع زملاء كثيرين في صحف أخرى، ومحطات الإعلام، كان أهمها زيارة محطة (أس بي أس) والزميلة المتميزة ماجدة عبود عندما أجرت معي لقاء على الهواء، كان كفيلاً بأن يتعرف عليَّ الأهل الذين تدفقوا إلى بيت (أمل) ابنة خالتي مرحبين بي بينهم.

▪ الأوبـرا هـاوس

زيـارة (الأوبـرا) كانـت مـن أهـم الزيـارات التـي قمـت بهـا، حيـث خرجـتُ مـن تحـت مظلتـي فـي يـوم حافـل بـالمطر، كـي أعبـث بالطرق المليئـة بالحياة، أسلط الضوء على مكان يمكننـي لجم المنظر كـاملاً كـي أضـعه فـي كـاميرا الجيـب، لكـن كـاميرا العين كانت أسرع، أجدى وأعمق.

يعتبـر مبنـى الأوبـرا مـن أهـم مـا شيِّد فـي القـرن العشرين، تلـك الأشـرعة المفتوحــة الجميلــة، شـبهتها أيـضًا بــالزهرة وربمــا بصدفات البحر.
تقع الأوبرا على ميناء (بينيلوغ بوينت) متخذة لها مركـزًا هامـة يطل على عدة شطآن، حيث البنايات الرائعة والـضخمة، ويظهـر مبنى (الكازينو) في الأفق القريب.

صـمم البنــاء المهنـدس المعمــاري الـدانماركي (جـورن اوتـزن)، أختير تصميمه من بين ٢٣٣ تـصميمًا مـن مهندسين معمــاريين من جميع أنحاء العالم.
بوشــر العمــل فيــه ســنة ١٩٥٩ وانتهــى ســنة ١٩٧٣، وكــان المفروض الانتهاء منه سنة ١٩٦٧ لكن لأسباب مختلفـة جـرى البناء متقطعًا.
سعة القاعة ١٠٤٧ كرسيًا، وتتألف البنايـة من عدة قاعات.

حضرت ملكة بريطانيا إليزابيث حفل تدشينه في موكب احتفالات ضخم جدًا، وتعود فكرة بنائه إلى الثلاثي الموسيقي الأسترالي (ايوجين كومسينس) بعدما لاحظوا حجم النشاطات الثقافية والفنية المختلفة والتي كانت محصورة في بناية (التاون هول).

ويعتبر مبنى الأوبرا هاوس وجسر هاربر من أهم رموز قارة أستراليا.

اتخذت طريقي بعد ذلك إلى مناطق مشهورة على الساحل، منها منطقة (بونداي) و(مانلي) الجميلة، ساحل ساحر أمكنني العودة إلى فترة زمنية سابقة من السنوات الأولى للمستوطنين الجدد، حيث قام باستقبالي المرحبون بالزي الشعبي الأسترالي بقبعاتهم الجميلة، حال جميع الزوار.

كان المكان أشبه بأن يكون ريفًا ساحليًا، شبيه الريف الفرنسي في (الريفييرا) ومكانًا شعبيًا يؤمه السائحون للاستمتاع، خاصة الشوارع الضيقة منه الحافلة بالمطاعم الشعبية.

والجدير بالذكر أن الريف في الولايات الأسترالية عادة يكون جبليًا، وبين الغابات، حافل بالكرمة المستخرج منها النبيذ بأنواعه.

وأخيرا مررت أمام عتبة مشهورة بجانب باحة الأوبرا، بحثت عن وجه عرفته ولم أره، اقتنصت المكان بعينيَّ الحزينتين،

تفقدتُ الرصيف الذي أصبح فارغًا تمامًا منه، لم يكن الشاعر الصعلوك (جان دمو) هناك والذي مات عليه، بعد فترة قصيرة من وصوله إلى أستراليا!

▪ (ميريتون باي) الرائعة

حزمتُ حقيبة صغيرة ومنحتها لأول قطار مسافر في اتجاه منطقة جديدة تبعد عن مدينة (سيدني) أكثر من أربع ساعات سفر، إلى منطقة (ميرتون بي).

حملنا القطار، أنا و(فايليت) وهي صبية أسترالية، لبنانية المنشأ، من جذور فلسطينية. حيث سنكون في ضيافة شقيقها المهندس الذي عمل في المنطقة.

هيأت نفسي فبدوت يقظة الفكر، تأملت باهتمام واضح المساحات الشاسعة التي مرَّ فيها القطار، ومرافقتي خاضعة لنوم أكيد، معللة:

- سأنام الآن كي أتفرغ لكِ ليلاً، فبانتظارك مفاجآت جميلة. قالت.

قلتُ لها:

- يا أنثاي، حافظي على قلبي، يا مدللتي، أنا هنا حاضرة ، يا جمالاً غافيا على منصة الصبر، نامي واستريحي فأنا بانتظار المزيد.

اتفقنا على هدنة، أستريح فيها أنا من الكلام، وهي تأخذ قسطًا من الراحة متوقفة عن السؤال.

أحسستُ ومن خلال زيارتي (لسيدني) تشُّوق الأهل للمعلومات والكلام، إلى الحكايات والأدب، إلى كل شيء يمت للثقافة بصلة، فكانت زيارتي بمثابة إيقاظ دواخلهم التي هي في سبات.

وكانت الصبية (فايليت) أول المعجبات، لكنها وللأسف لا تحسن قراءة العربية، فاكتفت بالاستماع، وتدوين كل معلومة صغيرة كانت أو كبيرة، وكانت لها بعض المحاولات الشعرية، فشجعتها الاستمرار بهذا الطريق.

وكان طريقنا على امتداد ربع نهار رائع. اقتربت إلينا الجبال، القطار يسير كأفعى فوق المياه، والزوارق الصغيرة ترسو في ميناء ما تحتنا.
حافظتُ على عيني من عدوى السبات، شكوتها للسماء الزرقاء، للوديان السحيقة، لأجواء بيئية لا تكفيها رحلة واحدة، للغابات، للأحراش، للبحر، للنهر، صرخت:
- أين مكاني من كل هذا؟

شاب حنطي البشرة، بدا عربيًا بالفعل، جميل وذكي.. كان (إبراهيم) بانتظارنا، سرحتُ بفكري إلى البعيد، إلى شاب يشبهه في البلاد، (يخلق من الشبه أربعين) قلت؛ بينما هو يصافحني؛ مرحبا.

رماني القدر بين شابين محبين للحياة، متلهفين، لا يكفان عن السؤال، (إبراهيم) لم يصدق نفسه بأني موجودة معه، وقد قبلتُ دعوته، كان ممتنًا جدًا بوصولي.

سار بنا مسرعًا، مرَّ في قرى كثيرة تبدو كالريف الأوروبي، مدة ساعتين إضافيتين، لا مجال لوصول القطار للمنطقة، وأيضًا مستحيل لوصول الحافلات، فكانت رحلتنا أشبه بأن تكون خاوية من المواصلات، حافلة بالمغامرات، مليئة بالغرائب.

منطقة (ميريتون باي) كسائر المناطق التي أسسها الكابتن (كوك) وهو يبحر حول الشواطئ الأسترالية باحثًا عن مكان ملائم يبقي فيه الأسرى، هو عبارة عن عدة موانئ في ميناء واحد، أقيمت فيه فيما بعد مستوطنة اعتمد سكانها كليًا على تربية الأبقار.

اقترحت (فايليت) أن نجول المكان في السيارة.. رفضتُ رفضًا باتًا، فخرجنا معًا من حيث بدأنا مشوارنا الذي استمر نهارًا كاملاً دون التطرق إلى ما وراء الخلجان الكثيرة التي احتلت الشاطئ بصخورها العارية، المنتصبة بمجموعاتها المتفرقة داخل الماء، منظر رهيب ساحر.

سكنتُ وجه المحيط ، ركنت ظهري إحدى الصخور المالسة، تركت سمرتي لأشعة تغتال الحياة بلهيبها، هياكل صخرية

عملاقـة، تتحـدى وجـه التـاريخ، صـامدة بـلا مـأوى، فمأواهـا المحيط، تتخبط داخل الأمواج، تلطمها فتعود ساحبة بعض إرثها إلى عمق الحياة الناضحة.

سُحب الرمل من تحت قدميَّ، كلّمت الصخرة فما كلّمتني، كانت شاهدة على بعض أرقي، وبثوبي الناعم غمرته مياه متدفقة متسحبة من بين الصخور.

أرى البحر مغرمًا اليوم بسماء صافية، ينتظر الضحكات، فما من أحد هنا، سواي وصبية شقية تدعى (فايليت) تعوم داخل أمواجه بلا كلل.

أنت حبي الأول، يا بحر، يا صيحة الوجود، يا حافظ أفكاري الناعمة، فتراني على صفحاتك دائمًا، من أول سطر سطرته ذكرتك.
أمطرتني حبًّا، حياءً وحياة، أسبلت جفوني فمررت وهم الحزن على شطحاتك، أنتَ ومعي لا أخشى الخوف.

كنتُ في حضن الماء بمعية الصخور، كما كنتُ سابقًا في حضن الصحراء، بمعية صخور أهرامات الجيزة، تتبعتُ خطا السابقين إلى فوق، تدرجت نصف الهرم، لمست حجارته، كانت حيَّة لا تنطق، صنم مفكر، صامت شاهد على الحياة.

وصخور (ميريتون بي) صامتة خاشعة راضية بتلاطم الأمواج عبر كل هذه العصور، لا تنحني، ولا تفكر حتى بأن تصرخ محتجة، كما صرخت (فايليت) وهي تقترب، أخرجتني من صومعة عقلي فتحط بي إلى أرض الواقع، العودة قبل حلول الليل، فله لذة أخرى في هذا المحفل الذي لا ينتهي من غرائبية.

تسلقنا المنحدر الرملي أثناء العودة، الذي صبَّ بنا إلى أرض رملية أخرى، نظمت جوانبها بسياج مرتفع، أثار حب استطلاعي، سور يحيط منطقة آهلة بالسكان، سألت:
ـ ما سبب كل هذه الأسلاك، هل يوجد متسللين في المنطقة؟

ضحكت رفيقتي قائلة:
ـ طبعا لا، هو حماية خاصة لحيوان (الكنغر) كي لا يضل طريقه فيجد نفسه عائمًا في محيط ليست له نهاية ، ثم لا متسللين هنا، فنحن لسنا في أرض يتسلل إليها سوى الأحباء.

منظر غير مسبوق، الدلافين تقفز في الماء أمامنا بينما نعدو بخطواتنا إلى البيت، أصررت العودة بمحاذاة الشاطئ، بينما أصرَّت رفيقتي استدعاء (إبراهيم) ليأخذنا في سيارته، معللة:
ـ العودة بالسيارة أمان أكثر، نحن ولدنا هنا فنعرف التكيف لكل مجريات الطبيعة المفاجئة، أما أنتِ فقريبة العهد.

ـ حاضر، كما تريدين.

ابتعدنا عن الشاطئ كثيرًا، اختفى المتزلجون في لحظات، كان ضروريًا اتقاء شرِّ الحيوانات البحرية المفترسة من اختراق المياه العميقة وصولاً حتى الشاطئ، فقد حدثت أحداثًا غريبة في المنطقة، وهي تعرِّض البعض إلى غضب سمك القرش الخطير.

حفزني (إبراهيم) على رؤية الغابات ليلاً، لكنه أصرَّ على أن أغلق نافذة السيارة بجانبي، قائلاً:

- ستكون لنا مغامرة جديدة هنا، أرجو أن تتقيدي بالتعليمات.

- وما هي تعليماتك يا (شاطر)؟ قلت.

- ربط الأحزمة، غلق النافذة، والتنفس عميقًا.

- لماذا، هل سندخل مسابقة (رالي)؟

- طبعًا.

- هنا... في الجبال، المنطقة مليئة بالغابات؟ صرخت.

- هل تخافين، لا تدعيني أغيّر رأيي فيكِ، فكنت أشجع امرأة قابلتها، حتى الأستراليات لا يملكن شجاعتك.

- أنا لست خائفة بل مستغربة.

لم أكمل كلمتي وإذا بمجموعة من الكناغر تقفز على السيارة، لم ألحظ وصولها إلينا، فكانت أسرع من البرق، أحاطتنا وبدأت تضرب أبواب السيارة بحوافرها، و(فايليت) تلتقط لهم الصور وهي تصرخ مهللة مسرورة.

أوقف (إبراهيم) السيارة وأبقى المحرك دائرًا، أطفأ الأنوار ودعا الكناغر تهدأ، ثم مشى مخترقًا الغابة بهدوء وبحذر، وسألني:

- هل تريدين شوطًا آخر تتمتعين بمشاهدة الكناغر مجددًا؟

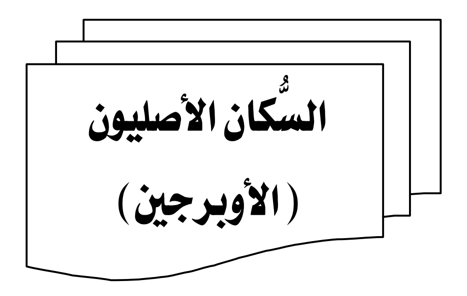
- يكفينا لليوم، فقد أخرجتني من حلمي.

عدنا أدراجنا، وفي الطريق نزل (إبراهيم) من السيارة وطلب مني القيادة.. رفضتُ معللة ذلك بأن لا رخصة أسترالية لدي، أصرَّ قائلاً:

- امرأة المغامرات تخشى الشرطة!

- ستريك امرأة المغامرات كيف يقودون بحذر.

وكانت تلك أول مرة أقود فيها السيارة منذ وصولي، استمتعت بهذا الشعور، جموح كبير غمرني، أعادني لتذكر سيارتي التي تركن في كاراج بيتي الذي لن أعوده أبدًا بعد اليوم... ولن آسف على ذلك!



"انظر عاليًا شعبي
الفجر يبزغ
العالم يستيقظ
على يوم مشرق جميل
عندما أحد لا يشتمنا
ولا اللون يخزينا
ولا السخرية ترعبنا"

كات وولكر
شاعرة أوبرجينية
(١٩٢٠-١٩٩٣م)

هاجر السكان الأصليون (الأوبرجينيز) إلى القارة الأسترالية (لم تدعى بهذا الاسم حينها) قبل ٦٠,٠٠٠ سنة من جنوبي شرق آسيا. قدموا عن طريق البحر، ومع التغييرات الجيولوجية لسطح الأرض والتي حدثت تدريجيًا مع مرور الزمن؛ احتلتها المياه التي كانت ضحلة وارتفعت لتكون حائلاً دون عودتهم إلى موطنهم الأصلي، فكتب لهم البقاء في قارة كانت مجهولة حتى القرن السابع عشر.

وحسب الدراسة وموضوعها المسمى (بانغيا) ومعناها باللغة الإغريقية (كل الأرض) توصل العلماء لهذا الاكتشاف، وهو أن تغيرًا بطيئًا يحصل على القارات مما يؤدي إلى تحركها. حدثت كسورٌ وشقوقٌ في اليابسة، مما أدى إلى انفصالها وارتفاع المياه.
وهناك دراسة تقول بأن مبنى اليابسة للكرة الأرضية يؤكد بأن جميع قارات اليوم كانت عبارة عن قارة واحدة كبيرة ضخمة قبل ٢٠٠ مليون سنة، (ما تزال الأبحاث مستمرة بهذا الشأن).

عاش (الأؤبرجينيز) حياة بدائية وخلال ٣٠٠٠٠ سنة خلت حدثت بعض التغييرات على حياتهم لكنهم احتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم. وبسبب تعلقهم بالأرض والطبيعة، دعاهم هذا التأقلم السريع مع البيئة البرية، استخدموا النار والأدوات الحجرية للزراعة والصيد. أقاموا السدود وغيروا مجرى المياه، تحكموا بالبرك والمستنقعات، وقاموا بتربية الأسماك.

كانت هناك حضارة (موراي) اتخذوا لهم أقصى جنوب القارة موطنًا، تمركزوا حول نهري (جارلنغ) و(وموراي)؛ والأخير يعد من أهم الأنهار في القارة الأسترالية، واستقروا أيضًا في عدة بحيرات أكبرها بحيرة (مونجو) التي تكونت جراء انصهار الكتل الجليدية، وقد عثر في المنطقة على جماجم وهيكل عظمي لإنسان (المونجو) تعود إلى ١٣,٠٠٠ سنة مضت.

اعتـاش (الأؤبرجينـز) علـى جمـع الثمـار وصـيد الأسـماك. لهـم عقائدهم وتقاليدهم، وتداولوا أكثر من ٢٥٠ لغة مسموعة، كل مجموعة أو قبيلة لها لغتها الخاصة بها، وانقرضت معظمها في مطلع القرن ١٩.

عانى (الأؤبرجينز) من معاملـة الرجل الأبيض السيئة، لـم يكـن لهـم حـاكم أو رئـيس كـي يقـوم بتنظـيم حيـاتهم التـي اتـسمت بالترحـال والبـداوة، لكـنهم كـانوا يعـودون إلـى رجـال القريـة وكبيـري الـسن مـنهم والحكمـاء للبـت فـي الأمـور الاجتماعيـة والزواج.

أشهر زعمائهم العمُّ (ماكس هاريسون) من قبيلـة (يون)، يقـوم بتنظـيمهم اجتماعيًـا حـسب المـوروث الاجتمـاعي المتـوازن. يتبعون قوانينَ وأعرافًا تعودوا عليهـا، وهـم (وحسب ادعـائهم) ليـسوا بحاجـة للحكومـة لتكـون سـلطانًا علـيهم، بالمقابـل يتبـع القانون الأسترالي تنـازلات خاصـة فـي (بعض الحـالات) يحدّ أو يخفـف مـن العقوبـات والجنايـات، متخـذين بالحـسبان التقاليـد والمبادئ المتاحة والمعترف بها كقوم يتفرد بخصوصياته.

عرف (الأؤبرجينز) العبادة الوثنية ولهم طقوس خاصة في حالة المـرض والوفـاة، ويؤمنـون باسـترداد كـرامتهم المهـدورة بواسطة السِّحر، مستغلين دوران كواكب السيارة والمتغيرات

الفلكية أسلوبًا لتحقيق مآربهم. معظمهم اعتنق الدين المسيحي فيما بعد. لكنهم غير ملتزمين دينيًا ويكرهون الالتزام.
هنالك مجموعة كبيرة عاطلة عن العمل، يعتاشون على التأمين الشهري الحكومي، يوجد نسبة منهم مدمنون على مادة (الصمغ) معبرين بذلك عن احتجاجهم واستيائهم من الرجل الأبيض. ظاهرة اجتماعية شائعة خاصة بين الشباب والفتيان هي التشرد والتخريب واتخاذ بعض الحدائق لهم مسكنًا ليليًا.

لكني استطعت أن ألج بعض قلوبهم الجميلة وصفاء روحهم، شعب جميل المعشر، وفيٌّ ويتميز بسعة الصدر، يملكون موروثًا فنيًا جميلاً، كالرقص، الغناء، العزف، والرسم، كانوا يملكون أدبًا شفهيًا، غير مكتوب، ولهم أساطيرهم التي تحكي عن الخليقة، وولادة اليابسة، تصف الأرواح العلوية، هي التي خلقت الأرض والطقس أولاً، ومن بعدها خلق الإنسان فخلقت معه الحيوانات والنباتات.

رمز القوة العليا يكون بظهور قوس قزح، علامة الغضب والرضا. فيقومون بطقوس خاصة تعبيرًا عن الحزن والتضحية من أجل إرضائه، وأيضًا طقوس مغايرة ودندنة مكررة تعبيرًا عن فرحتهم برضائه عنهم.

يمارسـون طقوسًـا مـشابهة عنـد ولادة الإنـسان، أو مماتـه، وعندما يستطيعون تسخير الحيوانات لصيدها، مستعملين أداة الرمي (البومرينج) وهي على شكل مثلث بضلعين.

منهم شاعرات وأديبات، أشهرهم (كات وولكر) ومنهم القضاة ومسئولون وإداريون.

عندما اقتحم الرجل الأبيض بلادهم كان عددهم ٣٠٠,٠٠٠ نسمة موزعين على ٥٠٠ مجموعة ولكل مجموعة لغتها الخاصة بها. وكما هو معروف وأيضًا يعترف الأستراليون بأن الاستيطان أثَّر سلبًا على وجودهم، فهم يعانون من خلل اجتماعي، آخذين بالانقراض رويدًا رويدًا، وعندما بدأ المستوطنون الاستيلاء على أراضيهم، قام بدحرهم ومطاردتهم.

تعرضوا لعمليات إبادة، السكان البيض يعترفون بالأحداث المؤسفة التي حصلت سابقًا، والحكومة تحاول معالجة الأخطاء. يقال بأنهم دسوا لهم السمَّ في الدقيق، ويقال أيضًا إنهم لم يتحملوا الأطعمة المخمرة التي أتى بها المستوطنون، لتعودهم على أكل اللحوم وافتقارهم للمناعة.
كانت هناك مقاومة لم تدم طويلاً ضد المستوطنين، غير متكافئة أدت إلى اندحارهم وترحالهم إلى مناطق نائية فكانوا عرضة للأمراض، الأوبئة، سوء التغذية وبالتالي ارتفاع نسبة الوفيات. يعانون من الفارق الاجتماعي والحضاري.

آمن (الأؤبرجينز) بقوة الأرض فهي السيد التي تملك الإنسان والحيوان وكل الذي يجري عليها، بينما كانت بالنسبة لتفكير الرجل الأبيض مغايرة تحتوي على الكثير من الثروات.
أستشهد ببعض من قصيدة الشاعرة الأسترالية البيضاء (جوديت رايت) عندما عانت وعائلتها من جهد كبير بتطويع الأرض بهدف الإقامة فيها:

- " لا لم أكن أنا البادئة
الملتجئة إلى الكهوف الباردة
الجائعة في المطلق الكادحة خلف الرغيف
المصغية لنحيب الأطفال
ورغم ذلك ما شكوت، ما قلت أني
غير سعيدة
تأقلمت بما فرض علينا من عقاب
إنها الحياة...".

ومن الأحداث القاسية التي كانت تزيد العبء على السكان الجدد، هو موت الماشية في بعض المناطق دون معرفة السبب.

لقد جاء الرجل الأبيض ضمن ما أتى به، الخرفان والمواشي الأوروبية التي كانت ترعى في حقول أسترالية تنبت فيها نباتات سامة، (الجسترولوبيوم) نبتة متعددة الأنواع (أكثر من ٤٠ نوع) بينما لم يتأذى حيوان (الكنغر) منها.

بوصول الرجل الأبيض إلى جزيرة (تسمانيا) سنة ١٨٠٣ وقع صدامٌ مريرٌ بينهم وبين السكان الأصليين، حيث كان عددهم ٥٠٠٠ شخص، تمتعوا بالحرية وبأسلوب هم راضون عنه، جرت أحداث شغب ومقاومة، مما أدى بالرجل الأبيض الدفاع عن الأرض منتهكًا أساليبَ فوضوية.

خضع (الأؤبرجينيز) لتجارب مخبرية وحسب نظرية (داروين) في التطور، وموضوعة الفقرة الناقصة والنمو العقلي لدى الشعوب البدائية. استحال عليهم الهرب، تعرضوا لإبادة جماعية حتى خلت منهم الجزيرة تمامًا، واحتفظ المتحف هناك بأجساد خضعت إلى عمليات مخبرية. وآخر جثة كانت لامرأة تدعى (تروجانيني) قامت السلطات اليوم بإزالتها، طاوية صفحة سوداء أخرى على أحداث مضت تأسف عليها أجيال اليوم.

وحسب ما ورد، هناك القليل من (الأؤبرجينيز) يعيشون اليوم في (تسمانيا) لكنهم لا يمتون بصلة للقدماء.

كتب أحد الكتاب عن (الأؤبرجينيز):

- "لديهم تقنيات تفي بالغرض، لا هم آلهة ولا هم حيوانات متوحشة".

وهـا هنـا بعـض الكلمـات التـي كتبتهـا الـشاعرة الأوبرجينيـة (أودغيرو نونيوكول١٩٢٠- ١٩٩٣) وسميت أيضًا (كات وولكر):

" أنشودة الأمل"

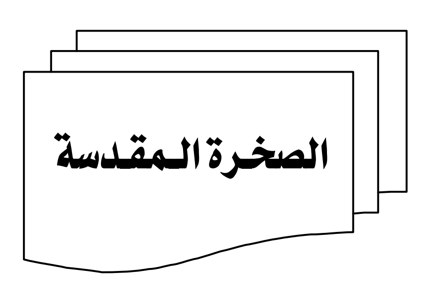
" لا تغرقوا اليوم بالتفكير
فِي السنين البائدة
فالأمل قد عاد لكم
يعوِّض عن الماضي
عندما عدل العادلين
يكبر حكمة وقوة
والإصبع تتوقف عن الإشارة
صوب العرق الأدكن
انتظرنا طويلاً
مقيدين ومحبطين
حتى تُكره الظلامية
اليوم سيرشدنا الضوء
وستُفتح كل الأبواب
التي أوصدت طويلا..."

تقوم الحكومة الأسترالية الآن بتعويضهم عن معاملـة الـسابقين الـسيئة لهـم، وتحـاول جاهـدة تقلـيص الفجـوة بـين الـشعبين، حضاريًا، ثقافيًا، اقتصاديًا، اجتماعيًا الخ.

لهم حقوق وإمتيازات، وحق أفضلية في التوظيف والدراسة في الجامعات، تخصص لهم زوايا خاصة في جميع المتاحف للتعريف عن حضارتهم، بالرغم من أنهم وفي بعض المناطق يعانون من الإهمال الملحوظ.
ما تزال نسبة كبيرة منهم تعيش في مناطق نائية وبعيدة صعب الوصول إليها، محتفظين بعقائدهم ومواقفهم.

يقيمون في المناطق الريفية، في سيدني، ولاية كوينزلاند، أستراليا الغربية ويشكلون ٢٠% من عدد السكان الكلي للقارة الأسترالية.

يحاولون وبكل قواهم عدم الانصهار بالمجتمع الأسترالي والمحافظة على تقاليدهم وعاداتهم، يصنفون ضمن الفئات الفقيرة والمتأخرين، لكنهم برغم كل شيء يحتفظون بلقب هام وهو أنهم الشعب الأصلي لهذه القارة التي تحولت خلال فترة قصيرة إلى جنَّة على الأرض.



أقيمت منطقة (أليس سبرينج) قديمًا لتكون محطة تعامل بأسلوب البرقيات.

يؤمها السائحون على مدار السنة، فتعتبر أهم معلم للسكان الأصليين. في المنطقة بعض الفنادق السياحية، أجرتها باهظة الثمن (٣٥٠ دولار أسترالي لليلة الواحدة) وساحة كبيرة لتكون محطة وقوف للسيارات البيتية المتنقلة (كرافانات).

(من عادة الشعب الأسترالي سياحة المناطق برًّا في سيارات نقاله (كرافانات)، نظام له قوانينه، لهم أماكن استراحة منظمة ومرتبة خاصة غير مجَّانية).

تعلو في المنطقة صخرة كبيرة على شكل سحلية في قلب اليابسة، صخرة (ايريس) المقدسة بظهرها المحدب، وتسمى أيضًا (اولورو).

ارتفاع الصخرة ٣٥٠ مترًا، حمراء اللون، وتتغير ألوانها عند غروب الشمس وشروقها، وعند هطول المطر. لا يوجد داخلها معابد أو ما شابه، هي صخرة عملاقة قائمة بحد ذاتها.

يتسلقها الزوار مجتهدين، يساعدون أنفسهم بسلاسل حديدية نصبت خصيصًا لتكون حائلاً دون التزحلق لأن سطحها أملس.

نقش على بعض الصخور في القاعدة رسومٌ وأشكالٌ تحكي عن تاريخ (الأؤبرجينيز)، وتختبئ داخلها مياه معدنية صافية، عادة تستقطب المرضى وطالبي الإنجاب.

المنطقة الضائعة في وسط القارة الأسترالية، على ضفة نهر (تود) الكاذب، تحمل في طياتها أقدس مكان (للأؤبرجينيز) الذين بدأوا يستاؤون من منظر المتسلقين والهابطين من الصخرة دون احترام قدسية المكان.

تكونت في المكان وهودٌ عملاقة وكتلٌ صخرية كانت سببًا حقيقيا في نشوء سلسة جبال (أولغاسي) وذلك نتيجة سقوط النيازك، المذنبات، الشهب وبعض الكويكبات من الفضاء.
(للعلم أنه أكثر من ٣٢,٠٠٠ نيزك وجدت على سطح الأرض).

معلومات أولية
عن قارة أستراليا

"أعطونا بضع كلمات رائعات
حلم ، ثقة ، رحمة
لكي نغطي بها قلوبنا
وأعطونا الحظ والموت
اللذين لم يفهمهما لا أينشتاين
ولا العصفور الدوري
لكي يدفعونا إلى تجربة
في الشجاعة "

بيتر باكاوسكي
شاعر أسترالي

تقع أستراليا جنوب شرق آسيا على غرب المحيط الهادي، يحيطها من الشمال بحر تيمور وبحر أرفورا ومضيق تورز، ويحدها من الشرق بحر كورال وبحر تسمان، ومن الجنوب ممر باس والمحيط الهندي يحيط بها من الجنوب والغرب.

بداية سميت بهولندا الجديدة، عرفها الصينيون ثم الأندونيسيون وذلك قبل أن يصلها الأوروبيون. ويعتقد أن البرتغاليون أول من وصلوها، ثم الهولنديون في أوائل القرن السابع عشر.
أول مكتشف لها كان القرصان البريطاني (وليام دامبيير) سنة ١٦٨٦.

وصلت رحلة الرحالة (جيمس كوك) سنة ١٧٦٨ وتحديدًا إلى الشواطئ الشرقية، ألحقها ببريطانيا وأطلق عليها اسم (ساوث ويلز)، ويعتبر أول من وثقها، قام بأبحاث علمية، رسم الخرائط، ودرس البيئة، وكانت تعتبر رحلاته استطلاعية.

ثم وصلتها السفن البريطانية محملة بالسجناء المنفيين وذلك في أواخر قرن الثامن عشر، اعتبرت مستوطنة للعقاب والإصلاح، إبعاد المجرمين الإنجليز وعزلهم والخارجين عن القانون. نوع من العزل الاجتماعي المقصود. ومن ثم بدأت تصلها الوفود الجدد من أقطار مختلفة، وخلال القرن التاسع عشر سُجل قدومٌ ملحوظٌ للمهاجرين الذين طلبوا العيش والاستقرار على أرضها.

وصلتها أول سفينة بريطانية سنة ١٧٨٨ تحت قيادة (آرثر فيليب) والذي صار حاكمًا أوّل على ولاية (نيو ساوث ويلز). ومن ثم تدفق عليها المهاجرون الأحرار، فكانوا بداية لحياة جديدة وتقلُّص عصر السجناء، حيث قاموا باكتشاف الجزء

الـشمالي الـشرقي. بـدا التزايـد ملحوظًـا حيـث انتـشرت حركـة الاستيطان، استصلح المستوطنون الأراضي وركزوا على تربيـة الضأن الأمر الذي أدى إلـى ازدهـار صنـاعة الـصوف فيمـا بعد، وعلى الخصوص بداية من القرن التاسع عشر، حتى أصبحت فيما بعد من أهم الصادرات.

اعتمد اسم أستراليا في عام ١٨٢٤، بعد أن أستخدم سابقًا اسم (أن ناون ساوثيرن لاند) بمعنى (الأرض الجنوبيـة المجهولـة). واسمها الرسمي، الكومنولث الأسترالي.

لا حدود بريـة لهـا، وهـي أكبـر جزيـرة وأصـغر قـارة فـي العـالم وتشكِّل ٥% من اليابسة، والصحاري تغطي ثلث مساحتها.

رأس الدولة هي الملكة إليزابيث الثانية، ملكة المملكـة المتحـدة، يمثلها مايكل جيفري. رئـيس الحكومـة، كـيفن رود، وقبلـه جـون هاورد. نظام الحكم، فدرالي ديموقراطي تابع للتاج الوطني.

نالــت أســتراليا اســتقلالها ســنة ١٩٠١ وانــضمت إلــى الأمــم المتحدة سنة ١٩٤٥.

- أعلى نقطة : جبل (كوسيوسكو) يبلغ ارتفاعه ٢٢٢٨م
- أخفض مكان: بحيرة (ايد) ١٦م تحت سطح البحر.
- مساحتها : ٧,٦٨٢٣٠٠ كم مربع.
- عرضها : ٤٠٠٠كم من الشرق إلى الغرب.
- طولها: ٣٢٠٠كم من الشمال إلى الجنوب.
- التعداد السكاني: ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة يقيم ٨٠% منهم في الربع الجنوبي الشرقي من القارة. (حسب احصائية ٢٠٠٤).
- الكثافة السكانية: ٢,٤ نسمة بالكم المربع.

- **الصحاري الأسترالية** :

للقارة الأسترالية أربعة صحاري:

١. صحراء سمبسون ٢ . صحراء جبسون

٣. الصحراء الرملية الكبرى ٤. صحراء فكتوريا الكبرى

- **الأنهار المهمة الدائمة** :

١. نهر موراي : ينبع من المرتفعات الشرقية، يصل طوله حوالي ٢,٥٨٩ كم.

٢. نهر دارلينغ : ويعتبر أطول الأنهار يصل طوله ٢,٧٣٩ وينبع من وسط المرتفعات الشرقية ويتصل بنهر موراي.

▪ **الحيوانـات :**

للقـارة حيوانـات فريـدة لا تعيش فـي منـاطق أخـرى فـي العـالم، الكنغر، الكوالا.

ويعتبـر حيـوان البلاتيبـوس وقنفـذ النمـل مـن أغـرب الحيوانـات، فهي من الثديات لكنـها تأتي من البيض.

يعيش فيها أكثر من ٧٠٠ نـوع مـن الطيـور البريـة منـهـا ستـون نوعا من الببغاوات. أي أنـه يعيش فيـها ٧٠% من طيور العالم.

وفيها أيضًا أكثر من ١٤٠ نوعًا من الثعابين معظمها سام.

وفيـهـا ٣٧٠ نوعـا مـن الـسحالي، والتمـساح الـضخم الـذي يبلـغ طولـه أكثر من ٢٠ قدمًا.

ويعيش فيها ٨٨% من الزواحف في العالم.

فيها أكثر من ١٢٠ مليون رأس بقر.

فيها أكثر ٢٥ مليون كنغرو.

▪ **أنـواع النباتـات :**

في القارة الأسترالية ٧٠٠ نوعا من الأشجار، أشهرها الأكاسيا. وأكثر من ٥٠٠ نوع من الأوكالبتوس. النخيل، وآلاف الأنواع من الزهور البريـة.

أستراليا الأولى عالميًا في صادرات اليوكسيت، الأغنام، الرصاص، الزنك.

وتأتي بالدرجة الثانية: الحديد / الدرجة الثالثة: الذهب / الدرجة الرابعة: الفضة واليورانيوم / الدرجة الخامسة: النيكل والنحاس / الدرجة السادسة: الفحم / الدرجة السابعة: القصدير / الدرجة الثامنة: اللينيت / الدرجة التاسعة: القمح، قصب السكر، القطن / الدرجة العاشرة : الأبقار.



"عيونُ المجد إنْ تدمع
فدمعها يروي ما نزرع
ولكنا فقأناها
بسهم حاقد يصرع "

شربل بعيني
أديب لبناني مقيم في أستراليا

رؤيـة الـشارع فـي (ملبـورن) مختلـف عنـه فـي بـاقي الولايـات الأسترالية، مجرد الاصطدام بالحاضر (الملبـورني) يجعلـك تـرى الجمـال من بعيد ولا تـستطيع الإمـساك بـه، بـل الاحتفـاظ بأجمـل صورة يمكنـها أن تحيا معك، وكما قال (جبران):
- "إن الجمال هو ما تراه وتود أن تعطي لا أن تأخذ".

أمكنني التقـاط الرؤيـة الحقيقيـة وبالتـالي تكوين تقديراتي حـول كـل الأشـياء المختلفـة، الطقـس البـارد ونعومـة المطـر الـدائم، الطـرق المغـايرة والنــاس المنــشغلون، وكــأن وظيفــة مدينــة (ملبورن) بث النشاط الدائم داخل عروق الكسالى.

لا كسل هنا، مسؤوليات الحياة الكبيرة تسحق الأنفس وتلقيها داخل المترو (القطار الكهربائي) الذي شارك السيارات الشارع، لا شبيه لحياة الاسترخاء المليئة بحرفة الكلام، لا مجال للجلوس والتمتع بالطبيعة الجميلة، الصخب يملأ حتى أصغر الأماكن.

بدأت نهاري وقوفًا بين الأجساد المتحركة العابرة على طول الشوارع الطويلة التي لا تنتهي، استغللتُ كل وعيي اللامشغول في ذاكرة يمكنني توظيفها، مستخدمة أسلوب المقارنة الدائم، فأنا بحاجة ماسة إلى خزين معرفي بيئي لهذه المنطقة الجديدة.

مجنون الرؤيا ينبهني على الطريق، أتحسس المارة وكأنهم لم يكونوا، لا أحد يلتفت إلى أحد، ولم أسمع كلمة (سوري - آسفة) من أحد كما كنت أسمعها وأنطقها في كل يوم عشرات المرات في (بريزبن)، بل ضحكتْ مني رفيقتي (زيزي عازر) عندما قلتها لعابرة سبيل مسرعة عندما أفسحتُ لها الطريق.

سألتني (زيزي):

- هل عرفتِ مدينة أجمل من هذه!

- أجبتها: بالطبع (بريزبن)، لأني أستطيع أن أضع أحلامي وهواجسي على أهدابها الساحرة! أما (ملبورن) فلا يمكنني سوى ادخار ما أراه عبر أجساد متحركة عابرة.

- دائمًا تفضلين (بريزبن)، لن أسألك بعد اليوم، أما أنا فما زلت مسحورة (بملبورن)! قالت.

إنه سؤال مألوف متداول هنا بين القادمين، (أين أجمل)، (أين أفضل)، (أين أستقر)، (أين أذهب) الخ. وكأننا في خضم كل هذا المجال الواسع، الحرية والجمال، نحتار باختيار الأفضل، نبقى نفكر بجشع ملحوظ، ودون قناعة، نريد أن نلتهم كل الأشياء، وألا نبقي أي شيء. لذلك أرى العرب مندثرين هنا وهناك، ومنهم من يحاول إخفاء وجوده عن الآخر، ومنهم من يغيِّر اسمه، ومنهم من ينسى الجذور بسهولة، ومن لا يتداولون لغة الأم متعمدين.

لنعد إلى (ملبورن) المكتظة، والتي تنافس (سيدني) على لقبها ومركزها، عدد سكانها ثلاث ملايين ونصف، هي عاصمة ولاية (فكتوريا)، تحمل خزينًا كاملاً لشتى أنواع الرياضات، بدءًا بالفروسية وانتهاء بلعبة (الراجبي) الأسترالية، فتعتبر العاصمة الرياضية والثقافية للقارة الأسترالية.

مدينة الحدائق الخضراء، انتعشت كثيرًا في القرن التاسع عشر بسبب حملات التنقيب عن مناجم الذهب، فأصبحت المركز الأكثر قوة في أستراليا.

مساحتها ١٧٠٠كم ، تتمتع بجو حضاري ممزوج بأكثر من ١٤٠ ثقافة وحضارة شأنها شأن جميع الولايات.

يحتوي سوق ملبورن على أكثر من ١٠٠٠ حانوت، لا تنام ليلاً، صاخبة وهادئة في آن، تقع على ضفاف نهر (هيرا).

ضواحي (ملبورن) مبسوطة على ميناء (فيليب باي) مساحتها من الشرق إلى الغرب ٥٠كم . ومن الشمال إلى الجنوب ٧٠كم.

سميت (ملبورن) بهذا الاسم سنة ١٨٣٧ نسبة إلى اسم ضاحية أقام فيها رئيس حكومة بريطانيا (ويليام لامب) آنذاك. وفي سنة ١٨٤٠ استقطبت أكثر من ١٠,٠٠٠ مهاجر.

استضافت (ملبورن) دورة الألعاب الأولمبية سنة ١٩٥٦ في ملعب ضخم يعتبر الآن من أكبر الملاعب في العالم، يحتوي على ١٠٠,٠٠٠ مقعد. وتحتفل كل سنة في شهر أكتوبر بسباق الفروسية (أستراليان كاب ـ الكأس الأسترالي)، والذي أصبح يومًا وطنيًا، يحتفل فيه جميع الأستراليين.

تتميز (ملبورن) بأسلوبها المعماري المتفرد، شبيهة المقاطعات البريطانية ومنطقة (البيج بن)، تحتوي على أرقى المسارح والمتاحف.

وعلى ذكر المتاحف، خلال وجودي هناك استضافت (ملبورن) عرضًا مكررًا لأعمال الرسام العالمي (بيكاسو) في متحف المدينة العريق، عُرضتْ فيه بعض أعماله، كانت بالنسبة لي زيارة هامة دعتني العودة إلى الوراء سنوات قليلة، إلى أيام رائعة، عندما زرت أعماله الخالدة في مدينة (أنتيب) الفرنسية الساحلية، حيث فزت برؤية لوحته الهامة (ليماجا) والتي قام (بيكاسو) بإعادة رسمها سنة ١٨٧٩ وحتى سنة ١٨٨٠، بعد

الرسام (يوغي)، ومجموعة أخرى من اللوحات، التماثيل، النقوش، القطع الخزفية، والصور.

أصرّت (زيزي) وهي طالبة عربية تحضّر رسالة الدكتوراة في علم النفس، اصطحابي إلى مكان آخر.

دخلنا داخل قمصاننا البيضاء في محفل غير شرعي، اعتمرنا قبعات بيضاء أيضاً، ودحرنا جوعنا الداخلي ونحن نعبر ممرات كلية (ويليام أنجلس) لتعليم الطهو، والتي تخرَّج منها ١٠٠,٠٠٠ طالب منذ تأسيسها سنة ١٩٤٠.

كانت الرحلة إلى هناك، وحسب اعتقادي، ضرورية جدًا بعد يوم طويل شاق أمضيناه ونحن نتسكع دون قيود بين معالم المدينة، ساحاتها، مرافئها، شوارعها، وجامعاتها.

تذوقنا شتى أصناف الطعام وقمنا باختيار الطبق الأفضل لذلك اليوم، ومنه إلى الشاطئ لاحتساء القهوة بالمذاق الأسترالي، التي لم تتفوّق على مذاق قهوتنا العربية، في مقهى جميل بني داخل ميناء (سانت كيلدا) المشرف على المحيط.

وفي طريق عودتنا، وقعت عيناي على لافتات مكتوبة باللغة العربية، في أطول شارع في (ملبورن) منه يمكن الوصول إلى مدينة (سيدني)، اسمه (سيدني رود)،(طريق سيدني).

وفي اليوم الثاني، عدنا إلى (سيدني رود) تناولنا فطورنا في مخابز (شويري)، بعض المناقيش والمسخّن بالفلفل الشطّة، الخبز بالجبن، وأهم الأطعمة اللبنانية اللذيذة. أمكنني الحصول على الصحف العربية الأسترالية هناك (التلغراف) و(المستقبل)، وصحيفة محلية أخرى. بدأت أنقّب عن مقالات تغذي روحي وعقلي بشيء من اللغة العربية التي بدت لي أنها ستتبخر من دماغي سريعًا في الغربة إن لم أمارسها.

ومن هناك حيث المكتبة العامة، جناح كامل مليء بالمؤلفات العربية. تنفست الصعداء وأردت أن أرقص مثلما رقص (زوربا) عندما رأى البحر، لكني آثرت أن أضيع رقصًا بين الكتب يومًا كاملاً، أقرأ، أتصفح بعطش عارم، ثم انتقي منها ما يعجبني لاستلافها.

لم أخرج منها إلا في ساعة متأخرة، فتواجهني الحوانيت بكل أشكالها تعرض المنتوجات العربية، لكني قصدت أولاً مصفف الشعر الأكثر شهرة بين العرب، (محل سعد) كان من الجنوب اللبناني، ومن هناك عرجت إلى محل لبيع الأفلام العربية والسيديهات لصاحبة من بيروت، حملت معي (كاظم الساهر، وأم كلثوم) ثم إلى محل الحلوى (كنافة نابلسية) صاحبه فلسطيني، ومن ثم إلى مقهى رواده جميعهم مصريون، يلعبون الطاولة ويقرأون الصحف المصرية.

دخلت بين الجموع دون تردد، وكأني ألج شارع (طلعت حرب) في ميدان التحرير بالقاهرة، اقتنيت بعض الصحف العربية، تبادلت الحديث مع بعض الرواد الذين رحبوا بي، وخرجت وأنا أحلم بلعب (دق شطرنج)، لعبة تدعني أهيم في جوٍّ أحبه، اليقظة، التربص، الصبر، كيد المكائد، ومن ثم الفوز.

وقبل حلول الليل عرجت على محال (الحج محمد السوري)، اقتنيت بعض الحاجيات الشرقية التي تقريبًا تكون معدومة في (بريزبن).

كيف أستطيع الابتعاد عن أجوائنا العربية الجميلة؟
تمنيت المكوث هناك طويلاً، كان شارع (سيدني رود) الأكثر حيوية بالنسبة لي، والأكثر عذوبة.

انتظرت مترو رقم ٢٨، ذهبت بي الذكريات بعيدًا، إلى يوم ميلادي الذي لم أحتفل به بسبب تركي البلاد، وضعني الرقم بين ألفتي وغربتي، الغربة عدمية ليس لها جذور، الغربة محنة كبيرة لا أحد يستطيع الإمساك بها فيوقفها. والألفة مزيج من الحنين والغباء.

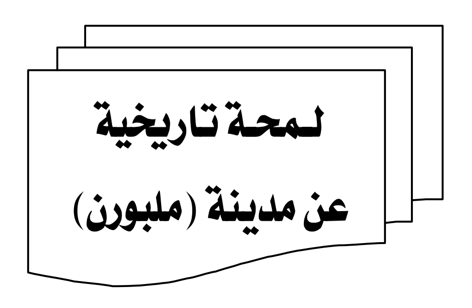
اكتظ المترو بالرُّكاب المرهقين العائدين من أعمالهم. صعد رجل مسن، أنيق الملبس، أملس الشعر أشيب، رقيق الملامح، ابتسم لي باعتزاز، قبض بلطف على باقة زنبق شامخة بيضاء، كان

دائم النظر في ساعته يتفقد الوقت، أنهمك بمراقبة الساعة والطريق، مكررًا ترتيب ربطة عنقه. خمّنتُ أن يكون على موعد خاص، موعد على مائدة العشق، وربما سيحتفل الليلة بيوم ميلاده التسعين! هنيئًا له.

عشرة أمتار ويصل المترو المحطة، تقابلت نظراتنا سريعا في الكثير من المرات، كان سعيدًا وفخورًا وهو يتأبط الضمة بيدين مرتجفتين، حيَّاني بحركة خفيفة من رأسه، فبادلته التحية، متمنية له في عقلي قضاء ليلة سعيدة.

فاتني إنذار السائق بالنزول، لم يتوقف المترو في المحطة، استمر في طريقه لا أعلم إلى أين، وأنا أغوص في أفكاري، وبما قاله (برنيس):

- " الحب نار تشوي قلب الرجل لتأكله المرأة ".



نزح السكان الأصليون (الأؤبرجينيز) قبل ٥٠,٠٠٠ عن طريق البحر من جنوب شرقي آسيا، كانوا ٣٨ مجموعة، عاشوا كقبائل وحياتهم كانت بدائية.

عرفوا آنذاك أساليب الصيد، استعملوا أدواتٍ مشحوذة، لامعة ومصنوعة من الحجر.

كانوا الأوائل الذين حرقوا جثث موتاهم، والأوائل الذين حفروا الصور على الصخور، كلغة مرسومة وغير مكتوبة، واستعملوا أدواتٍ أكثر تقدمًا.

وصل الرجل الأبيض إليها سنة ١٨٠٣، حيث صدموا بمعارضة شديدة من السكان الأصليين لم تكن متوقعة ألزمتهم الانسحاب إلى مناطق قريبة أخرى، لكن سرعان أن استجمعوا قوتهم فتمكنوا منهم، اغتصبوا الأرض، وقاموا بدحرهم وقتلهم.

بين السنوات ١٨٣٤ و ١٨٦٠ تقلّص عدد السكان الأصليين في ولاية فكتوريا من ١٥,٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ نسمة فقط.

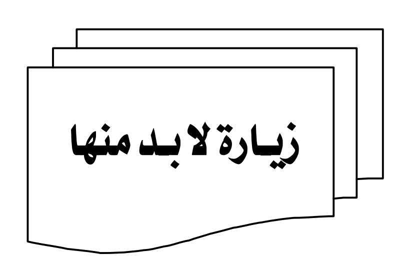
أقيمت (ملبورن) سنة ١٨٣٥ على أرض تابعة لعائلة (أوبرجينية) اشتراها المستوطنون البيض الذين أتوا من جزيرة (تسمانيا) مقابل، القمح، الثياب والأدوات المختلفة.

أقيمت (ملبورن) على أرض كانت تدعى (يارا باركس) و(ميناء فيليب)، وكانت تدعى آنذاك (أرض فان ديمون).

أعلن عنها مدينة سنة ١٨٤٧ وباركت ملكة بريطانيا الحدث، وأسست فيها أول البنوك والبورصة الأسترالية.

أول المستوطنين كانوا من بريطانيا وأيرلندا، ثم الصينيين فالألمانيين. وفي منتصف القرن العشرين بدأت (ملبورن) تستوعب وبصورة دورية مهاجرين من اليونان وإيطاليا بسبب الحرب العالمية الثانية. وكذلك بعد الحرب المزيد من الشرق الأوسط وأوروبا.

تعتبر مركزًا هامًا للجالية اليونانية التي تشكل ٤٠% من نسبة المهاجرين حسب إحصائية ٢٠٠١. ويقيم فيها الكثير من العرب، (نسبتهم اقل من ١%) من فلسطين، مصر، لبنان وسوريا.



هربتُ من حيرتي عندما أعلنتُ عن نيتي تجاوز حدود الاكتشاف...

مرَّت بنا السيارة بطيئًا بين حقول أشجار الجوز، امتلأت الأرض بها بينما انهمكتُ بلملمة أفكاري التي أخذتني توًا إلى فلسطين، عندما ركضت يومًا بين حقول الجوز وأنا أدوسها بقدميَّ دون أن أفكر بالتهام واحدة منها.. ها هو المنظر يعود ثانية، لكن هنا، في أرض خضراء أخرى على مدّ النظر.

سألت السائق عن موعد الوصول وهو يبحث معي عن العنوان، قال لي بتجهم واضح:

- (حالاً)....

وتبقى (حالاً) قيد ساعة سفر كاملة.

أخيرًا رأيت ثمة حياة، حيث ظهرت أشجار الكينا المنتصبة هناك من عصر قديم.

بدأت أرى أشياء حيّة من بعيد، والبعيد يقترب بينما هدرت بنا العجلات التي تباطأت وتوقفت فجأة، وصوت السائق يخترق أذني بصعوبة:

- ها هو العنوان، الظاهر أن الساكنين هنا من (الأوبرجينيز)، احترسي، أنتظر عودتك، أرجو التقيد بالموعد!

بينما انتظرني في الخارج.

لملمت خطوي نحو جرس الباب. امتلأ الحيُّ بأشجار كثيفة مورقة، حطّت أغصانها على الطريق، ولوحة كتب عليها، (احترس كلب في البيت)، كان بمثابة مجمع أسدلت على نوافذه ستائر صفراء، والأبواب الأمامية مفتوحة... كانوا جميعهم بانتظاري.

رائحة عفونة تتصدر من إحدى الغرف الأرضية حيث جلس رجل مسن على قماش مصنوع من القنّب على الأرض، كانت هناك نساء من مختلف الأعمار ارتدين لباسًا عاديًا لا يلائم وصرعة الموديلات في عصرنا.

استقبلتني (جونجو) وهي إحدى الصبايا (الأوبرجينيات) وتدرس مع (زيزي) في الكلية، جميلة البشرة وعيناها زرقاوان، نظرتُ إليها كثيرًا وهي محتارة بيني وبين جدتها التي جلست صامتة في أرض الغرفة.

انضم إلينا مجموعة من الصبيان العراة تكسوهم بشرة سمراء، أقوياء وحفاة، كانوا قد صبغوا وجوههم باللون الأصفر، عدة نقاط على الجبين وخط في وسط الجبين وحتى أسفل الأنف، يقابلهم خط آخر يقسِّم الخدين، فبدا الوجه مثل السلحفاة.. أحسستُ بهم سعداء لملاقاتي وهم يتزاحمون على الغرفة التي بدأت تضيق.

كانت عينا الجدة تعسية جدًا، نظرت إليَّ وكأنها تشكي لي هموم دهر كامل، لكنها اكتفت بترديد بعض الكلمات لحفيدتها لم أفهمها. وعندما أصررتُ على أن تترجم لي، قالت:

- لا شيء، تسأل فقط من أين أنتِ؟

- وما رأي جدتكِ بموضوع الهجرة الدائمة إلى هنا؟

صمتت (جونجو) أمام سؤالي كثيرًا، لم تجبني، فسألتها مجددًا:

- ما رأيك أنتِ بهذه الموضوعة؟

- رأيي إيجابي بالطبع، لكن جدتي رأيها مغاير.

واسترسلتْ:

- نريد نحن الشباب أن نخرج إلى العالم الواسع، ربما نستطيع اللحاق بغيرنا، لكن طبعًا هذا رأيي وحدي فقط.

لاحظتُ جيدًا كم تعاني (جونجو) الشابة الطيبة من صراعات أورثوها إياها، والخشية من التقدم خطوة واحده إلى الأمام،

وعلمت منها لاحقًا أن والدتها لا تجرؤ على زيارة عائلتها، لأنها اقترنت برجل أبيض.

كان الحائط مزدحمًا أيضًا بالصور، من ضمنها صورة صخرة (إيريس روك) وهو المكان الأكثر قدسية بالنسبة لهم. والعلم خاصتهم بألوانه الثلاث، الأحمر في المقدمة، رمز النار ـ الأسود تحت، رمز لون البشرة ـ والأصفر دائرة في الوسط رمز الشمس.

استقرت العائلة في ضاحية من ضواحي (ملبورن) بعد أن تركوا منطقة (أرناهيم) في أقصى الشرق من القارة، منطقة شاسعة لا تصلها شبكة المواصلات أبدًا، قبل أكثر من نصف قرن. لكنها بقيت محافظة على عاداتها ونمط حياتها، تأبى الاندماج مع المجتمع الذي يعتبرونه غريبًا عنهم.

سألتني الجدة عن سوار خشبي اعتمدته في يدي، قلت لها إنه مصنوع من الذهب، بدأت أشرح لها بعض التفاصيل عن الذهب فما كان منها سوى النهوض مسرعة إلى غرفة مجاورة وتعود بريشة صفراء اللون ذات خط أسود في الوسط، وضعتها في يدي وتمتمت ببعض الكلمات التي لم أفهمها، خرجت من البيت وفي قبضتي ريشة جميلة لطائر غريب.

المشهد الأدبي الأسترالي

"عندما تنبت في ورقتي
كلمة
يتنفس داخلي الموت
ملتقطة أنامله
قطرة حب "

حبيب فارس
كاتب لبناني مقيم في أستراليا

• مراحل الأدب الأسترالي:

١) المرحلة الأولى : من سنة ١٧٨٨ – ١٨٨٩ :

بداية كان الأدب الأسترالي مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا باللغة الإنجليزية، والأدب الإنجليزي كثقافة متميزة. ومع بداية تكوّن القارة بدأت تظهر أصوات أدبية من المستوطنين الأحرار، فكوّنوا منبرًا خاصًا بهم، دونوا خوالجهم، أحاسيسهم، ذكرياتهم، المكان الجديد بكل اجتذاباته المناخية، الجغرافية والسكانية.

تميـزت تلـك الفتـرة بكتابـة الـسير الذاتيـة، ومـذكرات الرحلـة الطويلة، جلب الرجل الأبيض معه آلة طباعة استخدمها فيما بعد في طباعة الأعمال الأدبية.

أمـا بالنـسبة للثقافـة لـدى (الأوبرجينيـز) فبقيـت شـفهية، فلـديهم الأغـاني والأسـاطير، يتمتعـون برهافـة الحـس لاقتـرابهم مـن الأرض والطبيعة.

ثم بدأت الثقافة تأخذ منحىً آخر ، فكتبوا عن أفكارهم السياسية، أحوال السجناء المنفيين، وصف الحياة الجديدة في قارة ثانيـة، عملية الاكتشاف والمصاعب الجمة التي مرَّ بها المكافحون في بناء وطن مثالي، الصبر، الخ.

أول قصة أسترالية كتبت كانت سنة ١٨٤٧، كانت عبارة عن سـيرة ذاتيـة لأحـدى الـسجينات المنفيـات تـدعى (كـونتيس سيرفنتون). وكانت أول روائية أسترالية هي (ميري فيدال).

تلت الروايـة الأولـى رواياتٌ أخرى وأعمـال لـم تخلـو مـن النقد المقارب بالأدب الإنجليزي.

وأول ديوان شعري نشر في أواخر القرن الثامن (لبارون فيلد).

٢) المرحلة الوسطى : من سنة ١٨٩٠ – ١٩١٩ :

تمتاز تلك الفترة بمزج التيار الواقعي وتنوعه بتنوع المجتمع، فبدأ الحديث عن مستقبل القارة الجديدة يظهر جليًا في الكتابة الأدبية، والتحدث عنه كبلد ديموقراطي؛ بجانب الكتابة الرومانسية البحتة، بمعنى أنها كانت هي مرحلة الانتقال لأدب الداخلي بكل عناصره وأحاسيسه.

ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، أنماط شعرية أخرى تتناول المواضيع القومية والسياسية، وكان التطرق عميقًا في أعماق الإنسان البسيط الذي يطلب الحياة بكل سلام، وكذلك التطرق إلى أعماق السكان الأصليين والأحداث الماضية التي حصلت.

٣) المرحلة الحديثة : من سنة ١٩٢٠ – ١٨٨٩، وحتى يومنا هذا :

لها مراحلها الفقيرة بالأدب والغنية أيضًا، والتنوع في تناول الموضوعات.

اعتمد الأدباء في كتاباتهم بهذه المرحلة على نظرية علماء النفس، وبالأخص نظريات سيجموند فرويد في التحليل النفسي وتفسير ما وراء الحدث. ومن الجدير بالذكر أن فرويد كان قد

أمضى عشر سنوات في لندن للعلاج من إصابة خدّه بالسرطان، فوفاته بعد ذلك، فذاع صيته أكثر في انجلترا، فما يذاع هناك يذاع هنا أيضًا.

بدأ النشاط الأدبي يتسع مع إطراد الهجرة، نمو الصناعة واتساع المدن، ازدادت المجلات والصحف الأدبية، وبالتالي ازداد قراء الأدب، فظهر أدباء روائيون حملوا الطابع الأسترالي في كتاباتهم، برز منهم (باتريك وايت) الحاصل على جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٧٣، وظهر الأدب بقوة في الشعر أيضًا.

تنوع المجال الأدبي فدخلت فروع كثيرة إليه، كالمسرح، الموسيقى، التصوير والرسم، فكانت الرسومات الطبوغرافية بداية. أبدع فيها مرافقي الكابتن (كوك) الذين بدأوا برسم رسومات تخطيطية، ثم صور للطبيعة الأسترالية بحيواناتها ونباتها.

وفي نهاية القرن ١٨ نشأت عدة معاهد للفنون والفن التشكيلي، وحتى منتصف القرن العشرين رحل العديد من الفنانين إلى أوروبا لأسباب عديدة. أما بالنسبة للنحت فلا يوجد في أستراليا معاهد ولا اتجاهات واضحة لذلك.



"الكلمة باب الإرث الحضاري
والكتابة مفتاح الديمومة "

رغيد نحاس
كاتب ومترجم سوري مقيم في أستراليا

عدت إلى (بريبزبن)، كالعادة، لم تكن (تمارا) في البلد، تركتني مع استرجاع أحلامي، كان المغيب قد حطَّ على حافة النافذة مرسلاً بعض الشفق الباهت، مكثتُ أمامه طويلاً وكأني أحمِّله جمال أسفاري، أراقب عن قرب مناظر الخفافيش العملاقة السوداء، التي احتلت السماء بأجسادها الكبيرة.

حاصرني بصوته، كان الوقت بعد منتصف الليل؛ كلب الجيران؛ ارتفعت أنفاسه في ليل هادئ إشارة وقوع كارثة، كان نباحه مستمرًا لحوحًا، لم يكن طبيعيًا، مغتاظًا وحائرًا .

توالت حبَّات (المانغا) السُّقوط من الشجرة المليئة بها، الواحدة تلو الأخرى، لتصيب جسده برضوض، وهو يحاول التهرب منها وتقيده مسافات السلسة التي رُبط بها، اكتفى التعبير عن آلامه بالنباح المباشر أمام الباب الداخلي للدار، طالبًا الحماية.

تحوَّل الكلب الأليف إلى راقص، هرب من القذائف المتساقطة، لم يستطع النجاة بنفسه، وعرف ضمنًا أن نباحه لن يردع الخفافيش من اللهو داخل شجرة (المانجا) التي أصبحت ملاذًا ليليًا لها دون انقطاع.

يضّحي بنفسه من أجل راحة صاحبه الذي أسكنه الحديقة ليكون ضحية مغامرة عابثة عندما يتحول الليل إلى جحيم، تمنى لو كانت الثمار عظامًا لسعد وانتظر المعركة بصدر رحب، لكن صدره أخذ يعلو وينخفض غيظًا، ولهاثه يخترق أذني وحتى صميم قلبي.
صوت أنفاسه الثقيلة فاقت أصوات الخفافيش المحتدة المرعبة، أصواتها المزعجة أسكنت الرعب داخلي، فتعلمنا في صغرنا الاحتراس منها.

لم يجرؤ قط الدخول إلى مسكنه فارًّا من قذائف حبات المانغا، التي يتلذذ غريمه بطعمها. الخفاش ينقر الحبات، يمتص القليل منها ثم تسقط منه، يلتهم أخرى، وأخرى، وكلما طار وعاد إلى عمق الشجرة، سقطت حبات أخرى دون أن يمسها.

عادتــه الخفـافيش الليلــة فتحوّلــه إلــى حيـوان أمـين مـستهدف، وكيف لـه التخلي عن دوره المقدس في حراسة بيت سيده الـذي ينام طوال الليل مطمئنًا قرير العين!

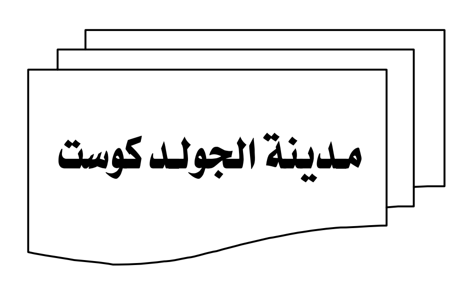
استمرت المعركـة حتـى سـاعات الـصباح البـاكر، وأنـا أحـرس أصوات الحيوانات اللبونـة والحيوان الأمين، لكن فوجئت بصمت مهيب، وفحيح حيَّة يخترق أذني، حيث أخذت تنساب لـها بخفـة على شجرة المانغا واضعة حدًّا لعذاب الكلب الأليف.

كان الثلاثاء، الساعة الثانيـة عشر ظهرًا. وصلت بنايـة البلديـة (سيتي هول) بسرعة فائقـة كي ألتحـق إلى الجمـوع فـي قاعـة البلديـة الفـاخرة كـي أستمتع مجانًـا ببعض الأغـاني والموسـيقى لفرقة عالمية، كما هو الحـال في كل أسبوع، يخصص برنـامج فنـي يتمتـع فيـه الحاضـرون دون أن يكلفهـم الأمـر سـوى بطاقـة حافلة توصلهم، عادة متبعة منذ سنوات، إحياء للمكـان والـذي يعد من أقدم وأهم المباني في أستراليا، بعد الأوبرا هـاوس فـي سـيدني لاحتوائــه علــى بــرج الـساعة، فيــه قاعــات، متــاحف، ومعارض تعرض فيها تاريخ بريزبن منذ قيامها وحتى اليوم.

ثم إلى الشارع الأهم حيث أقدم بريد في المدينـة (شارع الملكـة)، فالـشوارع الرئيـسية الأخـرى الموازيــة لهـذا الـشارع سـميت بأسماء ملوك وملكات بريطانيا، والشوارع الجانبية التي سميت بأسماء الأمراء وأميرات ويلز.

أحببتُ منطقة (الريفر سايد) (جهة النهر) والتي صممت سنة ١٩٨٦ ، تحتوي على أكبر بناية في بريزبن، بعد مبنى السنترال بلازا، ارتفاعها ١٧٤م، برج (أوروروا تاور).

في المنطقة أيضًا مبنى البورصة، ومن عادتي كل يوم أحد قضاء فيه بعض الوقت والتمتع، دعوة إلى الخلوة الذهنية والاستمتاع بما خلقه الله وما صنعته يد الإنسان.



مدينة الجولد كوست

شددتُ الرحال إلى مدينة تتلألأ شواطئها ذهبًا في سماء صافية، فكانت (الجولد كوست) ضمن جدول رحلاتي.

تدرجت حتى القطار إلى محطة (الساوث بانك) وتعتبر محطة رئيسية وهامة، تتمتع بشبكة قطارات تربط المدينة من شرقها إلى غربها.

سافرت في قطار سريع، لم يتوقف إلا في بضعة محطات، مخترقا كمًا هائلاً من مدن الضواحي.
كانت مدة الرحلة ساعة كاملة، حطَّ بنا القطار في محطة (روبينا) (عصفور أبو الحناء) ومن هناك أمكنني استقلال حافلة حتى الشاطئ مستعملة ذات التذكرة التي جئت فيها.

كانت رحلة مميزة، لأول مرة أرى نفسي مجددًا في (سان فرنسيسكو) الأمريكية، ذات الطابع وذات الثراء الفاحش، مدينة قريبة العهد، بيوتها جديدة وفخمة.

مررنـا بعـدة أنهـار، ربمـا كانـت سـتة أو سـبعة؛ بنيـت عليهـا الجـسور، ونظمـت حولهـا الحـدائق لتكـون رفيقتـا علـى طـول الطريق وحتى وصولنا الشاطئ.

بـدأ البنـاء فـي مدينـة (الجولـد كوسـت) فـي سـنوات الثمـانين، اضطر المهندسون إلى حفر شواطئ اصطناعية وبنـاء المـساكن علـى الـضفاف، منظر رهيـب رأيتـه، والأهيـب رؤيتـه مـن أعلـى برج في المدينة المقام على الشاطئ تمامًا، اعتلاء البرج بمصعد سـريع وحتـى الطـابق الـسادس والتـسعون مغـامرة ضـرورية وجميلة، ورؤية المدينة المطلـة علـى الـشاطئ مغامرة أخرى لا تنـسى، وكـذلك رؤيـة المدينـة مـن جهـة الأنهـار والبحيـرات الصناعية المقامة على طول النظر... جمال لا يتكرر.

مدينة (الجولد كوست) تعتبر الخامسة فـي قـارة أسـتراليا، ومـن أهم المدن الساحلية على الصعيد السياحي، فتعتبر موقعًا عالميًـا للتـزلج وركـوب الأمـواج، وتقـام فيهـا مـسابقات سـنوية كـان أشـهرها مـسابقة (الاينـدي) والتـي حـضرها نحـو ٣٠٩,٠٠٠ والتي أقيمت سنة ٢٠٠٢.

طول ساحل (الجولد كوست) ٤٢ كم ، ومشهورة بظهور سمك القرش الخطير بتعداده على الساحل.

مقهى العشاق

مشاركة شخص غريب كأس (واين) (نبيذ) في مقهى مطل على المحيط إنه لتجاوز أخلاقي خطير أُحاسب عليه في الوطن، وهو أمر عادي جدًا هنا. لكن في مكان جميل كهذا برواده الجميلين، لا يمكنني رفض الدعوة، خاصة عندما يثريني الحدث بمادة غنية يمكنني تدوينها، فغرائبية الحدث تتوثق في ذهني، وكي أشبع رغبتي بالتدوين، يجب أن أشاهد المزيد.

تمنيت أن يكون (كاظم الساهر) حاضرًا معي برائعته (ها حبيبي ... مو على بعضك أحسك). افتقدته فعلاً، فمنذ وصولي إلى هنا لم يتسنَ لي سماعه، وكان الوحيد الذي احتل مذياع سيارتي كلما ذهبت وعدت من العمل.

تخطى (فرانك سينترا) (مطرب أمريكي رومانسي مشهور جدًا متوفى) عتبات الفجر وهو يتحفنا بأغانيه الرومانسية.

كانت ليلة خاصة بالمسنين فقط ، يمارسون الحياة في البار، يغنون ويرقصون، يصورون بعضهم البعض بكاميرات قديمة، يرتدون ملابسَ شبابية، جميعهم احتجوا على زيّي .

صخب العشاق دعاني أتجول بعينيَّ بينهم أحاول لملمة الصور المختلفة المتعددة في ناظوري الشخصي فأفشل، كانت الصور المتحركة أمامي أشبه بموج (الجولد كوست) العالي، يموجون ويتمايلون، يرقصون ويتعانقون.

والمسن الذي يشاركني الطاولة يرفع كأسه بين الحين والحين يرشف منه القليل دون أن ينبس بكلمة، ربما لديه مشكلة الحب والكره، قلت.. وربما كان ينتظر خليلة لم تأتي... لقد كانت طاولة بدون حب.

هي محطتهم الأخيرة يتمتعون بما تبقى لهم، بقايا حياة، ما أجمل صخب العشاق في هذا الجيل!

كنت غريبة بينهم، ابتسموا لي، ولوّحوا بأيديهم مرحبين وكأنهم يعرفونني منذ عصور.

شغّلت أدوات استطلاعاتي، حاولت كشف المكنون. أعماقهم مفهومة، وملامحهم تقرأ من أول نظرة، أنفاسهم سريعة وأقدامهم أيضًا، بدوا وكأنهم يطلبون مساعدة الشبان أمثالي الأخذ بأيديهم وأن أصرخ بوجه العمر فأقول له: توقف، لا ترحل، هناك أناس يحبون الحياة!

ارتدوا لباسًا موحدًا، قميصًا أبيضَ نصف كُم وشورتا أبيض، اعتمروا قبعات بيضاء أيضًا، سألت نفسي:

- (هل يعقل أنهم يرتدون ملابس الزفاف)؟

وتهت مجددًا بين الكأس الذي لم أرتشف منه بعد، وبين المشاهدة التي أسكرتني.

سألت نفسي مجددًا:

- هل يبحثون عن علاقات مفقودة، علاقات جديدة مثلا؟

ولم أجد الجواب مجددًا، لم يكن الحفل يشبه المواخير، بل كانت فوضى بنوع آخر.

كانت هناك امرأة مسنة، حاولتْ استدعاء (نديمي) وبقي مكانه دون أن يهز له أي رمش، بل طلب المزيد من النادلة، التي تورعت إلى خدمته محترمة سنه الكبير، جاءته بكأس آخر وهي تغنّي وتتمايل، مالت نحوي قائلة:

- هل أتيتِ كي تشاركينا دعاءنا؟

- أي دعاء؟

- دعوة إلى الحب، الحب، ثم الحب، ولتذهب جميع الحروب إلى الجحيم.

- حروب. (قلت بقلق) !

- نعم الحروب في الشرق الأوسط والعالم أجمع، نجتمع مرة كل شهر من أجل الحب العالمي.

- إذن هو (فلانتاين) عيد العشاق؟

- لا بل هو عيد من أجل السلام في العالم.

صمتٌّ أمام كلامها، وصمت معي الكأس الملآن، طوقني كلامها بالذاكرة الملحة، لا ذكرى لدي سوى مدونة عقلي الذي يبحث عن الأحلام الضائعة. أنا هنا وبلادي ما تزال تخضع لحروب لا تنتهي، بينما في أستراليا البعيدة، حيث لا حروب ولا قتال، يحتفلون من أجلنا.

عادت النادلة لتسألني عن بريدي الإلكتروني كي ترسل لي دعوة تذكرني بالاحتفال الشهري.. لاحظتْ تجهمي، سألتني:

ـ ماذا حصل، لماذا أنتِ حزينة؟

ـ لا شيء!

ـ بل يوجد، سآتيكِ بكأس أخرى، ربما هذا النبيذ لا يعجبك، سيصيبك بالفرح، فالقليل منه مفيد.

قلت في أذنها:

ـ أريد البكاء، لا تلزمني الكأس.

الرجل المسن يتكلم فجأة:

ـ يا ابنتي، راهنًا على الوجود بهذا الكأس المرح، عندما يفرغ الكأس هذا لا يعني أن العقل يفرغ، وإذا امتلأ الكأس هذا لا يعني أن العقل امتلأ.

والكاتب الألماني (هرمان هسه) عندما قال: "ما دام الإنسان حيوانًا، فانه يعيش بواسطة العنف على حساب الآخرين الذين

يكرههم ويخشاهم، الحياة إذن حرب ، أما السلام فمن الصعوبة تفسيره". وكان من الصعوبة عليَّ فعلا تفسير معنى حفلة السلام الشهرية هذه!

وقبل عودتي، كان لا بدَّ لي التجوال في شوارع المدينة الزاخرة بضيوفها، استوقفتني موسيقى غير عادية، اقتربت نحو شاب (أؤبرجيني) يجلس أرضًا على بساط من فرو كنغرو، نصف عار، حافي القدمين، مصبوغ الوجه، يعزف في بوق خشبي أسطواني يدعى (ديدجريدو) مصنوع من خشب (الأوكالوبتس)، أو من أشجار (الكاكتوس) يقوم النمل الأبيض بقرض جزءه الداخلي، وعادة تكون طريقة العزف الصفير في داخله مع ارتجاف الشفتين، فتصدر نغمة واحدة مكررة.

خرجتُ إلى ناصية أخرى، مجموعة مكونة من خمسة أشخاص، يعزفون ويغنون من أجل حث الآخرين العودة إلى الله، ويوزعون بعض البطاقات على المارة.

وفي ناصية أخرى أيضًا، فتى يعزف على العود، يقرأ النوتة ويمتِّع الآخرين بعزفه الجميل.

وفي ناصية أخرى أيضًا يقف فيها أحد الممثلين الصامتين، بدا آسيويًا يرتدي لباسًا بوذيًا، يقف ساعات طويلة دون حراك.

وفـي الناحيـة الأخـرى المقابلـة يقـف (تـشارلي تـشابلن) بزيـه المعـروف، يقـوم بـين الحـين والحـين بـبعض الحركـات دعتنـي التوقـف أمامـه طـويلاً اسـتذكر هـذا الممثـل العظـيم وأفلامـه الصامتة الرهيبة.

بينمـا كانـت تقـف قريبًـا منـه مجموعـة مـن الـشبان يرتـدون زي (الـشيطان) مقلـدين فـي تقليعتـهم فقـط عبـدة الـشياطين، تقليـدًا أعمى دون أي تجاوزات.

ولحكايا بعد نصف الليل بداية أخرى ...



الجُـزر

"ما هذا الأمر الغريب فِي أن أكون هنا بدل من أي مكان آخر،
لو أن والد والدي لم يحزم حقائبه هربًا من التجنيد الإجباري
الذي كانت تفرضه تركيا على رعاياها،
لـو أن أهـل أمـي لـسبب مـن الأسـباب لم يتركـوا منـزلهم الأرستقراطي فِي نيو كروس ويأتوا إلى مناجم الذهب فِي جبل مورغن..
لما كنت أستراليًّا.. إنه أمر حصل لي بالصدفة فقط "

ديفيد معلوف

أديب أسترالي

لـم أذهب إلـى الجزر كـي أبحث عن حجـر الفلاسفة هنـاك، هـو ظمأي للمعرفة وعشقي للرحلة.
كانت الجزر الواقعة على طول الساحل قبالة (كوينزلاند) كثيـرة، نحو ألف جزيرة غائبة عن العين لكنها قريبة من القلب.
منهـا مـأهول بالسكان الـذين يعيشون حيـاة عاديـة جـدا، حيـاة استرخاء وعمـل، فيهـا المـدارس، والمكاتـب، البنـوك، الفنـادق وكل شيء يمكن أن يحتاجـه الإنسان، ومنهـا أيضًا النائيـة التـي تقطنها الحيوانات البرية الأسترالية.

اكتشف الكابتن (كوك) العديد من الجزر التابعة لجزيرة (وايتسنداي) حيث أطلق عليها هذه التسمية أثناء رحلته سنة ١٧٧٠. أشهرها (جزر هاملتون) (هايمان) (لونج ليندمان) وغيرها. لكني أحب أن أتحدث عن جزيرة (ستريت بروك) القريبة من منطقة (كليف لاند).

▪ جزيرة ستريت بروك

لم يكن الوصول إليها صعبًا، بل متعة ما بعدها متعة.
وصلتُ إلى مدينة (كليف لاند) الساحلية الرائعة في الثامنة صباحًا، مدة الطريق من (بريزبن) حوالي الساعة، حيث حطَّ بي القطار في آخر محطة، ومنه تدرجت إلى الطرف الآخر من الشاطئ، فالعبَّارة التي ستقلني إلى الجزيرة. احتجتُ إلى عشرين دقيقة دون توقف كي أصل، غاضة النظر عن الاستمتاع برؤية مناظر تستحق التوقف عندها.

تعتبر (كليف لاند) منطقة قديمة، فكانت ميناءً للملاحين، شاطئها منخفض، فيها جزء من أرض يشبه اللسان العريض، محيطه ٤٠ كم والذي استغله الأستراليون لإقامة مدينة عملاقة حوله. فيها منارة قديمة، وبرج عالٍ استخدمه الملاحون ليكون برج مراقبة لسفن الصيد، منطقة جميلة وراقية.

قسِّم الخليج الكبير إلى عدة موانئ، ويعتبر قسمًا منه موقفًا خاصًا للنزلاء الذين يقيمون مباشرةً على طرف المحيط من جهة، ومن جهة أخرى تحدهم أجزاء من النهر والترع الصناعية.

أصبح مفهومًا ضمنًا لي أن الطيور التي تصاحبني تسيطر على السماء تمامًا، فلا منازع لها، وحتى الطائرات التي تطرق العباب كل خمس دقائق، لا تدعها إلى الاختفاء.

قبل أن تشتد الشمس بقرصها الحارق وصلت إلى ميناء صغير حيث سأستقل العبارة إلى الجزيرة، مدة الرحلة نصف ساعة.
سارت بنا العبارة في موكب عادي، تتهادى على مياه المحيط الهادئ، تخترق عدة جزر صغيرة غير مأهولة، لكنها كانت تضع فيها بعض الرجال في زيٍّ العمل. تتوقف للحظات، تُنزل العمال مع أدواتهم والصيادين الهواة بكل لوازمهم، تعود فتخترق الطريق إلى الأخرى، هلم جرًا حتى نهاية المطاف فتنزلنا من على متنها في ممر خشبي صغير أعد ليكون محطة انتظار واستيعاب أيضًا.

انتظرتْ في المكان حافلة قديمة، بدت وكأنها من عصر الحرب العالمية الأولى، كي تأخذنا إلى الطرف الآخر من الجزيرة، لها عدة مواقف في الطريق.

جلستُ في الحافلة الضيقة، عدتُ بالذاكرة إلى الوراء، إلى أحداث قديمة فكانت الخطوة الأولى إلى الوراء، معايشة عصر مختلف آخر يختلف عن عصر التمدن والعولمة، فطامٌ من صرخة الزهو إلى هدوء الصمت، انفصال تام عن الحياة المدنية لأحط بكل حواسي إلى حياة رائعة أخرى تختلف كليا عن حياة الترف في الطرف الآخر.

سبحان الله في خلقه، زرع الجُزر على مدى الساحل كي يؤمّن على الجزيرة القارة الكبيرة (أستراليا) من غضب البحر، ووظفها لتكون كاسرة أمواج ممتازة لها.

جزيرة (ستتريت بروك) مليئة بالغابات، والبحر من حيث نذهب يترجل معنا، الطريق ضيق لكنه معبد وصالح لأن تمر فيه مركبتين بكل أمان.

صعدت بنا الحافلة صعودًا خطرًا لتحطَّ بنا على الطرف الآخر في ساحة خضراء مستديرة أُعدت لتكون موقفًا منظمًا بمواعيد الرجعة.

قررتُ المبيت، فها هنا يمكنني خلق فكرة جديدة نادرة لرواية قادمة، وكنت قد حجزت لي مسبقًا جزءًا من غرفة بسريرين قاسمتني فيها إحدى النساء الأستراليات، وصلت من مدينة (بيرث)، اختارت مكانًا بعيدًا، كي تشفي روحها من حب فاشل استمر عشر سنوات.

تجولتُ مع روحي لوحدي، تاركة رمح عقلي وسيفي للهواء، سلكتُ طريقًا نحو قمة جبل يطل بقسوة نحو المحيط ، لم تخذلني الخطوات، ولم أحسب للقوّي أي حسابات، أنا في زمن اللازمن وفي عقد اللا عقود، أنا في مكان الحرية المطلقة، وسط جبال عملاقة دون قيود، هنا زمن القدسية، لا مكانًا سوى لنسج الكلمات.

المكان موحش بجماله وبدائيته، أقلق حفيظتي وحط الرعب والحذر في قلبي، خطأ أن يعيش الإنسان مع قيد الخوف، خطأ أن يربى على قواعد مبنية على الحذر، والخطأ الأكبر هو أن يتلهى بإحساس الخوف وينسى كل الذي حوله من روعة الكون، عظمته وقوته.

بدأ الطريق يضيق ليصبح ممرًا ترابيًا، ثم سلالم خشبية مزودة بمقاعد للاستراحة.

أطلَّ وجهي علي البحر من طرفه العالي وأنا على القمة، أحسستُ نحوه بحب دافق خاصة عندما ظهرت سلاحف البحر وهي تتغنج أزواجًا، تتراقص بلا ملل، تتمرغ بالمياه الصافية فتؤسس وجدانًا وحياة.

تسابقت النسور في السماء لملاقاتها، نسور ضخمة حامت بلا تردد في الفضاء، تغير، تهبط ، تخطف، تعود والسمكة في منقارها، ثم تبتعد كي تأكل غنيمتها وتعود مجددًا إلى حلبة

الاقتناص، تجمع في منقارها ما تستطيعه بلمحة نظر، حركة خاطفة سريعة لا يستطيع العقل الواعي استيعابها.

مررت في طريق مثيل لطريق قديم مرًّا فيه من قبل آدم وحواء، لكن في طرف آخر من العالم، أمر مقدس أن تطأ أرضًا لم تطأها قدما إنسان من قبل!

السَّاحل الصخري يحتل مكانًا في الماء بجموح وقوة، تلاطمه الأمواج بحزم حتى لتصل القطرات فوق أنفي.

ذلك الطارق، يطرق أمواجه بجنون لعلَّ العالم من حوله يستفيق، يتسلى بالعصيان، يسلمني مفتاح الألق، وأنا ابنة الاحتجاج ، أساومه على عمق المستحيل، ويساومني على برد عقلي.

للجزيرة مناخٌ خاصٌ بها، هدأتْ الأمواج عندما طلبتُ التماس الأنبياء، كي يزودوني بمزيد من حسنات البقاء، وهدأ قلبي معها، تدرجت إلى البساتين العامرة بالألوان والمياه تقسو على بعض الرمال الصفراء الرطبة تحت، جيئةً وإيابًا فتمحو آثار الخطائين، وكل ما أخشاه أن يكون هؤلاء بلا خطيئة.

كان الليل بانتظاري، ونجومه تتلألأ بكل وضوح، غير ثابتة. الهلال السباق إلى هزيمتها وابتعادها عنه، إلا نجمة واحدة جلست على طرفه تطلب ملاذًا، تتسلى بناره بينما جلستُ

ورفيقتي في أقصى العهود، على صخرة عمرها ملايين السنين، نتفقد شموخ إنسانيتنا بتقدم السنين.

ضوءٌ هناك من بعيد يبهرني، وضوءٌ هنا قريب يُكتب له الرماد، سيجارة تلو الأخرى بين أصابع رفيقتي، وضوء عقلي موجه نحو موقع ثلاث كواكب (الميزان)، حيثما أكون أسألهم عن وجهتي واتجاهاتي، فتسألني هي عن حلول ترضيها.

لا تكفُّ عن السؤال، وأنا لم أشبع من السؤال، هي ترخي أصابعها وتزم شفتيها عنادًا، وأنا أرخي نظري وأكبت تنفسي عنادًا.

- الدخان يقلق رئتاي. (قلت).

- "الحب لا يعرف أي قانون" (قالت)!

- وما نحن فيه سحر لا يقوى عليه لا (أينشتاين) ولا صاحبك (بوريسيوس)، تمتعي بالجنة يا عزيزتي!

"ما أثقل أن تتحدث إلى الصم الذي لا يمكنهم أن يسمعوك أبدًا، وما من مصيبة أثقل عندما تحادث الأسوياء فيتظاهرون كالصم".

وأردفتُ قائلة لها محاولة اقناعها بالنسيان والاستمرار قدمًا في الحياة:

- هنا موطن (الكانغرو)، وهي من الثدييات، تربي الأم طفلها في جراب أو (كيس بطني) ملتصق بجسدها، عندما تشرب هي يشرب صغيرها من حلمة في داخل الكيس، ومدة حملها شهر واحد.

قالت بصوت مرتجف:

- لا تهمني (الكناغر).

حاولت زميلتي الاعتراض، لم أهتم واستمريت:

- ينقل (الكانغرو) وهو على اليابسة قدميه الخلفيتين مع بعضهما البعض، الأمر يختلف في الماء، فيمكنه تحريك قدم واحدة فيبدو عائمًا.

اعتقدها (الكابتن كوك) نوعًا من أنواع الجرذان. الكنغر حاول مقاومة الرجل الأبيض، خاصة عندما أتى بالماشية والحيوانات. له طريقته بالهجوم والدفاع عن نفسه لكنه غير مفترس.

- أعلم، أعلم، أرجو أن تسمعيني... قالت بحرقة. وأنا أستمر في محاضرتي متجاهلة أمرها:

- ووراء تسميته بهذا الاسم حكاية غريبة. عندما رآه وهو يقفز، أحد مرافقي الكابتن (كوك) من بعيد، سأل (أروميًا) كان معه:

- ما هذا الكائن الذي يقفز من بعيد؟

أجابه (الآرومي):

- (كنجرو)؟ ومعناها باللغة الآرومية (لم أفهم ما قلته يا رجل).

ضحكتْ واستغربتْ المعلومة، واستغربتْ أكثر عندما ذكرتُ اسمًا غريبًا، فسرّتُ لها المعنى:

- (أروميه) : منطقة تقع شمال غرب إيران، بالقرب من بحيرة (أروميه) على الحدود التركية.

- إذن فأنتِ مجردة من كل قلب. قالت بتذمر ملحوظ...

أجبتها:

- طبعًا لا يا عزيزتي، لكني لا أدع تفاهات الحب تسيطر على حياتي.. سأكلمك الآن عن حيوان (الكوالا)، ويجب أن تسمعيني.

- (أوكي) سأسمعك حتى النهاية، وسأحاول الانسجام معك.

تنحنحتُ، واعتدلت في جلستي، غمرني شعور جميل، وهو عودتي إلى التلقين، مهنة أحببتها وقضيت جلَّ سنوات عمري في أدائها.

- لإناث (الكوالا) اختيار الذكر، فصرخة الذكر تجعل الأنثى التعرف على مكانه، ولها مطلق الحرية الذهاب إليه أو لا.

- لا أصدقكِ ...

قاطعتني مستغربة الأمر، لكني استمريت:

- والطريقة الوحيدة لإيجاده هي تتبع فضلاته... ها... ما رأيك يا زميلتي المصدومة بهذه المعلومات؟ وإن اللبيب من الإشارة يفهم.

ومن الجدير بالذكر أن كلمة (كوالا) تعني بلغة (الأؤبرجينيز) لا تشرب، وهو اعتقاد خاطئ، الصحيح هو أن (الكوالا) تحصل على الماء من شجر (الأوكالبتوس) فقط ، فتكون حركتها بطيئة جدًا، وتنام ثلاث أرباع المدة، لا تعويض عن نقص الطاقة لأنها لا تغيّر من نوع غذائها.

وكان للفجر وقع كبير في نفسي، خرجت وحدي حيث المطلّ، أطل علي الصباح من نافذة الكون المفتوحة، وهدير البحر يغرقني، كان المتزلجون قد استطاعوا استغلال الأمواج العالية، فبدو من فوق؛ حيث كنتُ؛ بأحجام صغيرة، وهم يمتطون الأمواج على ألواح بيضاء.

لا أعلم لماذا ذكرني قرص الشمس الصاعد بمنطقة (مأدابا) في الأردن (جبل نبو) حيث عظمة الشروق هناك أيضًا، بالرغم من عدم وجود وجه شبه يذكر وحتى بالألوان، هناك الجبال والصحراء، المرتفعات والكثبان الرملية الصفراء، وهنا سماء زرقاء صافية، والمحيط الأزرق يحيط الجزيرة الخضراء! هل هو حدسي الخاطئ أن أقارن بين منطقتين غير متشابهتين، أم هو انخطاف وجداني نحو الجمال، أم هو حنيني المستمر لشرقي العزيز؟ ... لكن ...
ربما لأن الشمس تبقى واحدة مهما طالت بنا المسافات.

أدركتنـي زميلتـي حيـث كنـتُ أقضي بعض الخلـوة مـع نفـسي، مـشينا معًـا فـي انحـدار يـؤدي إلـى الـساحل مباشـرة، مرصـوف ومهيأ لوصول السيارات القليلة التي تتمتع بها الجزيرة، أكثرها عبـرت المحـيط علـى عبَّـارة خاصـة، ربـتُ علـى كتفهـا محاولـة التخفيف عنها، فكانت شاحبة ولم تتذوق الطعام، كما لم أتذوق أنا طعم النوم طوال الليلة السابقة.

ـ كان الجو باردًا الليلة الماضية. قلت .

ـ لـم أنتبـه، آه ربمـا، لكنـي لـم أشـعر بـذلك، (بيـرث) أبـرد، هـل زرتـها؟

ـ للأسف لم أزرها بعد، سأفعل ذلك في أول فرصة.

قـضينا وقتًـا ممتعًـا معًـا، ونحـن نتنـاقش فـي أمـور شـتى، بـدت معنوياتهـا عاليـة، وقبـل العـودة إلـى الفنـدق قررنـا الـدخول فـي رحلة ليلية للغابة المحيطة بنـا، وكـأني بذلك أريد معاودة الكـرة لتجربتي السابقة مع (سميث) في (بايرون بي).

توقفت لبرهات وزميلتي ترمقني بدهشة واضحة، سألتني:

ـ لماذا توقفتِ؟

ـ هل سمعتِ شيئا؟

ـ كلا، أين؟!

ـ لا تخافي، ربما يكون (البوسوم) فهو حيوان الليل، هل تسمعينه كيف يتكلم، صوته يشبه صوت الإنسان، غير مؤذٍ، وربما يكون (كوالا).

قاطعتني بسرعة فائقة:

ـ على فكرة، لن أكون أبدًا أنثى (كوالا) وسأعتني بنفسي، أشكر نصائحك لي.

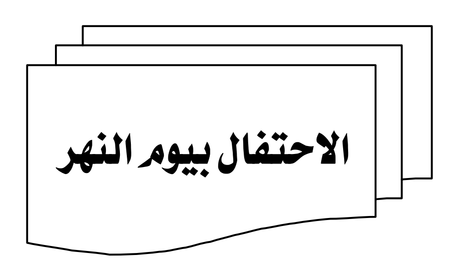
تغيّر المناخ فجأة، وصاحبتي ترتعد خوفًا تتوسلني العودة. حاولت غض النظر عن توسلاتها، لأني وإن لم أتتبع أمور هذه الجزيرة ليلاً فسأخسر كثيرًا.

لم أكن أسدًا كي أستأزر الشجاعة، ولم أكن جملاً فأصبر كثيرًا، فرفقتها أضاعت مني بعض الجلادة، لكني كنت نملة فلم أيأس، وانتظرتْ المزيد.

بدا الطقس ثقيلاً، ارتدت السماء الغيوم بسرعة فائقة، اكتست الأرض بأمطار خفيفة مفاجئة.

خرجنا من الغابة لنحط أقدامنا على الشارع المؤدي إلى سبيل العودة، امتلأت الأرض بسجادة كبيرة، لونها بني، عشرات الديدان تموج الشارع، خضعنا لمنظرها، طوقتنا بحركاتها الغريبة، فوقفنا نتأمل فندهش لطريقة زحفها الهستيرية.

كانت ولادتها حديثة، سقطت مع المطر المفاجئ بعد أن بخرت الشمس بيوضها، أكملت دورتها فنزلت فارشة أجسادها الدقيقة لتكون طعمًا نهمًا ولذيذًا للطيور الجائعة، التي تكالبت عليها دون تردد... اختالت سماء عقلنا فطردتنا من المكان.



"انحنيتُ لاكتشف المدى الذي
ينحني أمامي
لأقبل أذيالَ ثوبك الذي
يشع مثل ثلج كثيف
القادم من وراء البحار..."

فاضل الخياط
شاعر عراقي مقيم في أستراليا

مكان الدعوة، نهر بريزبن، الذي امتلأ بالناس. توافدوا عليه من جميع الضواحي المحيطة، وملأوا المكان بضحكاتهم وقهقهاتهم.
اكتظت الجسور العريضة الواقعة بكثرتها على النهر بالحشد والأعلام المرفرفة، لقد صنعوا أعلامًا خاصة النهر وانتظروا.

اتخذتُ لي مكانًا بين الحشد، على طرف الجسر بينما كانت الموسيقى المنبعثة تغمر المكان بأغاني العيد.

آلاف العيون انضمت إلى الحفل، احتضن النهر قوافلَ من الأضواء المنعكسة بألوانها المختلفة للمدينة بمبانيها وأشجارها المزينة.

استمرت الفعاليات والاحتفالات طوال النهار، ويجب أن تنتهي بما هو رائع وشيق. الولاية بموظفيها جميعا يتضافرون، يفكرون ويعملون بكل جهد من أجل إحلال البسمة في قلوب مواطنيها، ومن أجل تخليد النهر، الذي هو من أصله خالد.

توقفت الموسيقى، ومذيع القناة المحلية يعلمنا بترقب حدث مهم، وبدأ بالعد التنازلي والجمهور يعد معه: عشرة... تسعة... ثمانية... سبعة... وما أن وصل الصفر ليحتل منصة العد، إذ بطائرات حربية تخترق الجو بصخبها المخيف، هديرها المميت، وبضخامتها المحكمة.
اقتربتْ من النهر، حلَّقت بتعدادها. نثرت الرعب في قلبي، ملأتني ريبة ما بعهدها ريبة.

ناشدتُ السماء معاونتي اكتشاف كنه الحدث، لم أجد إجابات على تساؤلاتي، ترددت كثيرًا ثم فكرت بالهرب، لكن، كيف سأستطيع اختراق كل هذه الجموع، أحسست بالخوف الأكيد لأني لا أستطيع السباحة إن فكرت وقفزت من على الجسر.

بـدت الطـائرات أقـرب مـن رمـش عينـي... يـا إلهـي، خديعـة، تـضرعت إلـى الله أسـأله عن المـصير، لـم يجبنـي لأن اللحظـات الحاسـمة كانـت أسـرع مـن تلقـي الجـواب، وإيمـاني معـي علـى جسر واحد ربما سينفجر بعد لحظة، سألت نفسي، ترى هل هي خديعـة مـدبرة للقـضاء علينـا جماعـة، ولمـاذا؟ هـل وصـلتنا (طرطوشة) من الحرب الدائرة في الشرق، يا ساتر! هل وصلتنا الحرب إلى هنا؟

ارتجفتُ وجلاً من أزيزها الذي دعا الجسر يهتز ويرتعد تحت قدميّ. التزمت الطائرات بخطين متوازيين متقاربين وهي تغتـال أنظارنـا المشدوهة، عندما حلقت أزواجًا وبخفـة تقوم بحركـات بهلوانية. غادرت ثم عادت مجددًا لتقوم بحركات جديدة من أجل تسليتنا والترويح عنا، تصاعد التصفيق فـي كل مكان والمذيع يخبرنا بمفاجئة الدولة لمواطنيها في يوم النـهر.

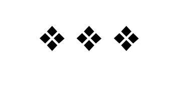
الدولة تكرس الطائرات الحربيـة، مـن أجل الترفيـه، يـا للغرابـة! تريد لشعبها أن يكون أكثر سعادة وقوة ممـا هو عليـه، الولايـة تعمـل علـى تـدعيم وسـائل الـسعادة لمواطنيهـا فيختـارون نـهـر ومواطني (بريزبن) لأجل هذا الهدف المهم فـي الحيـاة هنـا، أن يكون الجميع سعداء.

يا لـها من مفارقة مضحكة مبكية!

المسؤولون هنا يتحاورون، يتجادلون ويتناقشون طوال السنة، على كيفية صنع السعادة في القلوب ورسم الابتسامة على أفواه عبيدها، الذي هم نحن...

ارتجف قلبي لوعة وخشوعًا، أنا أمام طائرات حربية لا تخيف، أتت كي تبرهن أنها تحب السلام وتكره الحروب، تقول إننا مستعدون، لكن لغير الحرب، لا للقتل ، نحن ندعم الإنسانية. فالبشرية عندنا أثمن شيء.

لم أعلم كيف أكون حينها، وأن أكون أو لا أكون، أن أكون بشرية تحب السلام، أم أكون مجرد إنسانة أتت من الشرق الذي يحترق معتادة على القصف والحروب، على الكراهية والحقد... لم أعرف ماذا أكون!





قبل أن أطلق العنان لكلمتي الأخيرة، وبعد أن تعب القلم وتعب الكلام، لا بد أن أترك ما سجله آخر الكلام لهذه الرحلة الطويلة، هي لم تكن مجرد رحلة، إنما هي كانت تجوالاً في جنان الله.

استنشقتُ هذا العبق والذي يذكرني بالكتب السماوية التي تقول، هناك جناتٌ تجري من تحتها الأنهار والناس فيها مخلدون، تمركزت تمامًا في ذاكرتي وتركت هذا الكلام، وقلت إنها بلاد يحبها الله، يحبها من جميع الجهات ويحرسها بمقدرته العجيبة، لأنه كان عشيقها، هكذا هي أستراليا.

عندما كنت طفلة، درست جغرافية العالم، وحين وقع نظري على قارة أستراليا، فلت القلم من يدي وقلت، إن ركضتُ كثيرًا سوف أسقط في نهاية العالم، وها أنا أسقط فعلاً إلى واقع حال وأكيد، إلى نهاية العالم.

بوصولي أدركتُ أني أنتزع روحي من جسدي في فضائها العالي الذي هو قريب من الأرض بين بيضويتها في الزاوية المحصورة، حيث تعوم في آخر الكون وتحرسها الآلهة.

لأول مرة أكون في قارة بها علاقة حب وطيد بين سمائها وأرضها، والمطر يكحل جفونها كل يوم، لذلك هي دائمة البكاء السعيد الذي يخاطب أعشاب الأرض وجميع منحدراته، هناك علاقة وثيقة بين الناس المتواجدين هنا، بضحكة الحياة وضحكة المطر.

ولأننا تعودنا على السماع بدون الإصغاء، هنا البديل، الإصغاء وليس فقط الاكتفاء بالسماع إلى سيمفونية الكون التي تعوض حواسنا المعطلة عن كل شيء، الفجر هو المؤذن الوحيد فيه هي طيور الصباح، توقظنا على ألحانها الخاصة فتأخذنا إلى عبادة الله في جميع خلقه.

وفي المساء تبدأ طقوس الختام، فلا نعد ندري بأي زمن نعيش، تأخذنا إلى فراش الراحة في نهاية الأشياء، لكن تعود بنا، وفي الليل نصحو على زقزقة طائر الليل بذيله المضيء.

من عادتي تسجيل الأشياء التي تترك وقعًا في نفسي، ومن خلال كل هذا السرد أعتقدني استطعتُ أن أصل بالقارئ إلى جمال القارة المخفي.

تعوّدت أيضًا ملاحظة الجمال من بين كل القبح (إن كان هنا أي قبح)، لا أدري ربما كنتُ إنسانة محبة لكل الأشياء ولجميع الأشياء، وربما بالفعل كنت حسب ما قال شاعرنا إيليا أبي ماضي (كن جميلاً ترى الوجود جميلا)، لذلك رأيتُ ما لم يره

غيري جاءوا إلى هنا ورحلوا، أو أتوا للسياحة وغادروا بدون أي انطباع، وهنا أسجل لقاءً كان لي مع إحدى السيدات من الخليج العربي والتي التقيتها في مدينة (الجولد كوست) الرائعة جدًا، عندما سألتني: (ماذا يوجد لأراه هنا، يا ليت نزهتي انحصرت ليوم واحد يكفيني)، وأنا أقول لها الآن، ممكن أن تبقي عشرات السنوات هنا فلا يكفيك ما تتمتع به أستراليا من غرائبية الجمال.

الرحلة ليست مجرد مكانًا ترفيهيًا، أو تسوقا، أو الاكتفاء بالمشاهدة عن بعد، هي لمس الرمل والإحساس بدفئة أول الأشياء، وكما أسهبت في أول الصفحات، وهو أن أستراليا تلزمها المغامرة والتخفيف من أعبائنا التي نحملها على ظهورنا والتي أتينا بها من الشرق.

أستراليا ليست شبيهة أي مكان، لها خاصية مميزة لا تملكها منطقة أخرى في العالم، بلد حديث، فاعتماد المشاهدة يكمن في الطبيعة الخلابة، عالم الحيوان والنبات، التعرف على الجُزر، الغابات، والمغامرة البحرية.

أردت أن أستمر في سردي عن سائر المناطق التي زرتها، لكني خشيت من تكرار الكلمات لتشابهها، وأيضا لأن القلم لا يستطيع تخليد سوى المشاهد الحية، لذلك أترك أمر الجديد حال انتهائي من زيارته، وسأدونه في مؤلف آخر إن شاء الله.

ليس بوسعي أن أقول أكثر مما قلتـه، فعينـي الكـاميرا سجلت مـا هـو عليـه، وتبقـى كـل أشـيائي وأحلامـي صـورة مـصغرة لعـالم تفترشه الجنات.

وأخيرًا أقول:

رحلتُ وهرولتُ في زمن الرؤيا وأصبحت في البعيد. يا أنـا... لـن يسقط القلـم مـن يـدي، سـأقاتل فـي خنـدق الكلمـات، سـأجاهد كـي أحمل الجملة إلى آخر المطاف، كي لا يكون العنكبوت الأسترالي أذكى مني، حيث يسقط خيوطه في سجِّل ذاكرتي.

دينا سليم

بريزبن – أستراليا

المؤلفة في سطور

- دينا سليم حنحن
- روائية وقاصة فلسطينية تقيم في أستراليا
- تكتب القصة والمسرح والرواية
- تكتب في العديد من الصحف العربية والعالمية

- **المؤلفات :**

- الحلم المزدوج : رواية. دار العودة ، بيروت ٢٠٠٤م
- تراتيل عزاء البحر : رواية. دار العودة ، بيروت ٢٠٠٧م
- سادينا : رواية. دار ناجي النعمان ، بيروت ٢٠٠٧م
- الحافيات : رواية. دار أزمنة ، عمَّان ٢٠٠٨م
- قلوب لمدن قلقة : رواية. شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١١م
- ربيع المسافات : رواية. شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٢م
- دائماً معاً : رواية (قيد النشر)

- البريد الإلكتروني: dina_saleem2@yahoo.com

شمس للنشر والإعلام

رؤية جديدة في عالم النشر

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر، تم تأسيس "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، ومابين تحقيق رسالتها الثقافية.

وتهدف "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" إلى تحقيق عدد من الغايات:

- إتاحة الثقافة الرفيعة للقارئ العربي، وتلبية حاجاته من المعرفة.
- الإسهام الفعال في نشر الإبداع العربي، من خلال سياسات ترويج وتوزيع تتلاءم ومقتضيات العصر.
- تفعيل حركة النشر، خاصة لشباب المؤلفين، ورعاية وتشجيع المبدعين، ودعم قدراتهم الفكرية والأدبية، والعمل على نشرها وإبرازها.
- حماية الحقوق الفكرية والمادية للكتّاب، وإعادة صياغة أسس التعامل المادي مع المؤلفين وفق قواعد أكثر إنصافاً.

- التعريف بالكاتب والكتاب إعلامياً وجماهيرياً، ومد جسور التواصل بين المبدع والمتلقي.
- إثراء الحياة الثقافية بالأنشطة والندوات والفعاليات، من خلال رؤى تنظيمية وترويجية تضمن نجاحها والمشاركة الفاعلة فيها.
- الوصول بالإبداع العربي إلى القارئ غير العربي، من خلال ترجمة الإصدارات العربية المتميزة إلى لغات مختلفة، والعمل على خلق آفاق عالمية لنشرها بالتعاون مع دور نشر احترافية في العديد من الدول.
- توثيق الصلات بين دور النشر المحلية والعربية والدولية، وكذلك بين الكتاب والمثقفين العرب، والتواصل الفاعل مع المهتمين على اختلاف توجهاتهم، وفق صيغ تعاون إيجابية.
- إعادة نشر التراث المعرفي العربي ذي الإفادة في عصرنا، وتحقيقه وتدقيقه.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له؛ في النهاية؛ مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

شمس للنشر والإعلام

www.shams-group.net

(+2) 02 27270004 - (+2) 0188890065


شمس
ش
للنشر والتوزيع
(+٢) ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤   (+٢) ٠١٨٨٨٠٠٦٥
www.shams-group.net